

أوراق مطر مُسْفَلٍ

(قصص قصيرة)

نسب أديب حسين

دار الجندي للنشر والتوزيع



دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس

009722340035

info@aljundi.biz

www.aljundi.biz

✱

أوراق مطر مسافر

نسب أديب حسين

✱

الطبعة الأولى (2013)

جميع الحقوق محفوظة

فلسطين

البريد الإلكتروني: nasab_book@hotmail.com

لوحة الغلاف: الفنان طالب دويك

التدقيق اللغوي: أ. عماد الزغل

تصميم الكتاب: وائل واكيم

✱

ISBN 978-9950-383-44-9

✱

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه،
بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر والمؤلف.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced
in any form or by any means without prior permission of the
publisher.

أوراق مطر مُسَنَّ

إهداء إليك

حيثُ ما اقتنص لا الرهام ولا الزوابع
أبعاد الأفق عن عينيكِ
كلما سافرت تتبعُ خطوي.. أو عادت
بلهفٍ ترتقب عودي
إلى أُمي

هذه القصص

تكتب نسب أديب حسين قصصها من دون تكلف أو حذقة أو تعقيد، وتختار مادتها القصصية الخام مما حولها من ظواهر ووقائع وأحداث، ثم تقوم بتطويعها لتصبح عبر لغة السرد المتأنى والصياغات اللغوية الجميلة قصصاً لها وقعها المؤثر في النفوس.

وهي تجعل للمكان وللذاكرة حضوراً ملموساً في قصصها، وهذا أمر متوقع من كاتبة تعيش في قرية الرامة الجليلية، حيث المكان الفلسطيني مهدد بالمصادرة وبالاستيطان، وحيث الذاكرة الفلسطينية عرضة للمحو وللتشويه. ولا يظهر المكان في قصص نسب أديب حسين مجرداً أو عابراً، بل هو مكان مغموس بالذكريات، ذكريات الطفولة حيناً، وذكريات الأهل والأجداد حيناً آخر.

ففي قصة «شجرة الزلزلة» نلمس مدى التعلق

بالمكان وأشياءه والمشاعر الحميمة المرتبطة به، والذكريات المتشابكة معه. ثمّة شجرة قريبة من البيت، ولساردة القصة ذكريات معها تبدأ من الطفولة، وثمة تحريض على قطع الشجرة، والساردة لا تصدق أنها سوف تقطع، لكنها تسمع ذات نهار صوت منشار، وتفاجأ بشخص يقطع الشجرة وهي تنتفض محتجّة، وتتمكن في اللحظة الأخيرة من انقاذ الشجرة من القطع.

وهنا نلمس ميزة في قصص الكاتبة، وهي ابتعادها عن الشعارات، وبالذات لدى التطرق للعلاقة مع الاحتلال أو لممارساته التعسفية ضد الشعب الفلسطيني التي تصل حدّ إعلان الحرب والإقدام على قتل الأطفال والمدنيين بشكل عام. تبدو الكاتبة في هذا المقام كما لو أنها محايدة وهي ترصد الظواهر وتتابعها بلغة هادئة متزنة. وفي حقيقة الأمر، فليس ثمة حياد، وإنما هو الانضباط الذي يسمح للغة بأن تفعل فعلها في النفوس، وللمشهد القصصي بأن يتسرب إلى مشاعر المتلقي من دون تكلف أو استعجال.

صحيح أن ثمة مباشرة في بعض الحوارات، وثمة إصرار في بعض الأحيان على توصيل المعنى إلى المتلقي، ربما رغبة من الكاتبة في التعبير عن موقف ملح لا يحتمل التأويل، إلا أن ذلك ليس هو الطابع العام لقصص المجموعة، ولا هو سمتها الرئيسية.

وحينما تتطرق الكاتبة إلى العلاقة مع الآخر، فهي لا تذهب إلى المناطق المعروفة التي سبق للكتابة الفلسطينية أن طرقتها، بل تذهب إلى مناطق جديدة، وقد تكون هامشية لكنها غير مطروقة، ومثال ذلك: التعبير عن مأساة المدينة عبر الأصوات كما في قصة « هواجس عند مدامع المدينة»، أو فضح عمليات مصادرة الأرض من خلال لوحة فنية كما في قصة «وميض عند الهاوية»، أو استخدام الرمز الشفاف الذي يفضح هشاشة التعايش المشترك ما دام هنالك احتلال، والسخرية الظريفة من شرطة إسرائيل، كما في قصة «رهبة بناية» التي تستفيد من تقنيات الأدب البوليسي وما فيه من تشويق.

ويمكن أن نسوق أمثلة أخرى، مثلاً: الذهاب إلى بعض تفاصيل الحرب التي تعرّضت لها غزة، حيث نرى في قصة «أشياء لم يجمدها الصقيع بعد» كيف اختبأ الإسرائيليون تحت المقاعد، وبقي الفلسطينيون جالسين في القطار، أثناء إنطلاق صفارة الإنذار منبهة إلى اقتراب صاروخ قادم من غزة إلى تل أبيب. أو ما جاء في قصة «مع الريح وخلف العاصفة» حين التقت المرأتان الفلسطينية والإسرائيلية وهما تعانيان من السرطان. ولكن أي سرطان هو؟ الفلسطينية تعاني من السرطان الذي حلّ بقريتها المنكوبة واستأصلها منها، والإسرائيلية تعاني من سرطان الثدي. ورغم التشابه

الشكلي في التسميات، فليس ثمة ما يجمع بين المرأتين في الحقيقة، و يتأكد ذلك حينما يظهر ابن المرأة الإسرائيلية، الجندي القادم من الحرب، تحتضنه أمه، ثم تفترق المرأتان ولا تلتقي عيونهما.

ومن الأمثلة كذلك: الفرق بين خيمة الفلسطيني الناتجة عن تشريده واحتلال وطنه، وخيمة الإسرائيلي المنصوبة تعبيراً عن الاحتجاج من أجل مطالب اجتماعية واقتصادية. ولا يقتصر اهتمام الكاتبة على إجراء مقارنة بين خيمة الفلسطيني وخيمة الإسرائيلي، بل هي تذهب بعيداً في تبيان قدر الخيمة الذي يلاحق الفلسطيني منذ النكبة الكبرى التي وقعت قبل خمسة وستين عاماً، فنرى الجد يروي لحفيده عن تلك الأيام القاسية وعن السكن في الخيام، ويقول متأسياً بمرارة: الله يقطع هذيك الأيام. ثم تنتقل الكاتبة لتعرض مشهد هدم البيت الذي يعيش فيه الفلسطيني، ليكون مصيره السكن في خيمة، فيعلق الحفيد على الحالة الراهنة: الله يقطع هاي الأيام. بما يعني أن النكبة ما زالت مستمرة.

وتتعرض الكاتبة لجانب آخر من معاناة الفلسطينيين جراء الاحتلال الإسرائيلي، وهو المتمثل هذه المرة في مشكلة الأسرى الفلسطينيين، وما يعانونه هم وأهلهم من هذه المشكلة. ففي قصة «شتاء آخر دونك» ثمة سرد شاعري

يستبطن مشاعر الفتاة التي تفتقد خطيبها الأسير المحكوم مؤبدين في سجون الاحتلال، وهي تتأسى عليه، لكنها تجد العزاء في تعاطف الناس معها بسبب ما تعانيه.

إلى جانب الاهتمام برصد بعض مظاهر الصراع مع الآخر، والارتباط الحميم بالمكان، والاعتماد على مخزون الذاكرة وتوظيف هذا المخزون في تعزيز الرواية الفلسطينية عن علاقة الفلسطيني بالمكان، وعن عمق هذه العلاقة وأصالتها، فثمة تطرّق إلى موضوعات إنسانية توسّع المدى الذي تتحرك فيه القصص.

فثمة في القصة الأولى «احتمالات قليلة.. مسافات أقصر» استبطان لها جس الموت، ولتقاطع المصائر والتقاءها عبر العلاقة التي تنشأ بين المريض والطبيبة، تلك العلاقة التي لا تعترف باختلاف الهويات، ولا تقيم وزناً إلا للهامش الإنساني المشترك بينهما.

وثمة في قصة «سؤال» تطرّق إلى صعوبة فقد الأب على قلب الابنة، وافتقادها له في اللحظات التي تتمنى أن تجده إلى جوارها، في المستشفى مثلاً. وأعتقد أن هذه القصة استمدّت مادتها من واقع الكاتبة نفسها التي فقدت أبها الطبيب وهي طفلة. وفي قصة «جداول الألحان والحروف» معالجة رومانسية لعلاقة حب بين شاب وفتاة، والموسيقى هي العنصر الوسيط في العلاقة. وليت الكاتبة لم تلجأ إلى تلك

النبرة الإرشادية العالية التي ظهرت في الحوار. وفي قصة «وهم قصيدة» تعيش الفتاة علاقة غير مستقرّة مع شاب على إيقاع قصيدة لمحمود درويش. أما أجمل قصص المجموعة فهي التي اختتمت بها الكاتبة قصصها. إنها قصة «رسائل بين البحر والصحراء» المكتوبة بلغة شاعرية، حيث يتناوب الرجل والمرأة على السرد، وحيث يتأكد من سياق القصة ما أورده المرأة وهي تقول: « ما كنتَ يوماً رجلاً عادياً.. لأكون امرأة عادية ترضى بما أرضيت به من قبلي النساء..» وتحية للكاتبة نسب أديب حسين.

محمود شقير

القدس 14 / 6 / 2013

المطر.. الحلم المعتقد في جسد الغيم
كلما وُلدَ بحث مرّة أخرى عن ولادة.
لا تنسيه الدروبُ أمل السحاب..
بل تلملمه رشقة
في رسالة..

احتمالات قليلة.. مسافات أقصر

حائزة على الجائزة الثانية من مسابقة نجاتي صدقي 2012
عن وزارة الثقافة الفلسطينية

تنفس الصعداء بعد أن تمكن أخيراً من اتخاذ مقعدٍ، راح
ينظر عبر النافذة، يتابع المارين. مرت بضع لحظات حتى
اتخذت عجوز مقعداً بجانبه. استمر يحدق نحو واجهة
محل تجاري قبالة يحاول أن يميز ملامح وجهه ويتساءل
تُرى كيف يبدو؟ هل تظهر عليه علامات السهر؟
تحركت الحافلة.. حانت منه نظرة باتجاه الركاب، رآها
تقف قريباً تتمسك بواقٍ حديدي مثبت إلى المقاعد، راحت
تمعن النظر في عينيه وشعر بنوع من الغضب أو الحقد في
عينيهما، أشاح بوجهه عنها وعاد للنظر إلى الطريق. الناس
يمرّون بسرعة كل في وجهته، عجائز يجلسون على مقعد
يراقبون، شحادة تجلس قرب مركز تجاري.. هذا هو

حال مركز المدينة.. ازدحام وأناس من جميع الأصناف. تتوقف الحافلة عند محطةٍ أخرى، تجمهر الركاب خلف الطرف الثاني من زجاج النافذة فمنعوه من رؤية نفسه على زجاج المحل التجاري. أشاح بنظره الى داخل الحافلة، فوقع نظره عليها، ما زالت ترمقه بذات النظرة، شعر بالضيق والاختناق فتنهد تلقائياً، أشاح بنظره عنها لينظر الى ساعته إنها الحادية عشرة، ترى هل سيتمكن من الوصول الى مواعده بعد نصف ساعة؟

بات يشعر بالضيق من نظراتها، لكن نخوته لن تساعد اليوم لكي ينهض ويترك امرأة عجوزاً تجلس مكانه. عندما صعدت الى الحافلة وتقدمت وقع نظرها عليه فاقتربت، إذ بعث شكله في البداية الراحة في نفسها يبدو من ملابسه الفاخرة وملامحه الهادئة أنه يمتلك الكثير من اللباقة كي ينهض ويدعو عجوزاً مثلها للجلوس. إلا أنّها بعد أن وقفت قريباً، وراحت تنظر الى يديه المتكاثفتين ونظره عبر النافذة اعتبرته تجاهلاً منه لوجودها. اشاحت بنظرها عنه وراحت تنظر عبر النافذة ، تتساءل لماذا هم شبان اليوم بهذه الوقاحة، لا يحترمون ولا ينهضون لإجلال امرأة عجوز؟ صحيح أنّها لا تمتلك الكثير من المشاكل الصحية وهي تحمد ربها على ذلك، لكنّها تتعب بسرعة ومن المفروض أنّ شاباً مثله يقدر هذا وينهض

لأجلها .

تحقق في عازف «الساكسفون» الجالس هناك قرب المركز التجاري تتساءل كم من الأعوام قضاها هذا الرجل وهو جالس هنا في هذه الزاوية، وراحت تحاول التذكر وعندما عجزت وعادت لتتنظر اليه كان قد اختفى عن نظرها. ينظر الى أعلى نحو زرقة السماء ويفكر بسوادها في الليل، كم صار يخشى ظلام الليل، بات يقضي معظم هذه الفترة من اليوم بصحبة القمر، يقرأ وينظر اليه بين الحين والآخر الى أن ينهكه النعاس، يراقبه كيف يغير زاوية ظهوره كل مساء؟ غدا القمر فجأة صديقه الوحيد، وكلما تأخر ظهوره ازداد ضيقه. كانت ليلة أمس عصبية.. لم يستطع أن يطلع أحداً عما يلم به، غاب القمر وظهر شيء آخر عند النافذة يطرقها، ويبتسم له يطلب منه أن يتقرب اليه أكثر، وأجهد نفسه طيلة الليل وهو يحاول أن يطرد ذاك عن نافذته وعن مخيلته وعن ليله وكم خشي الفشل. هي.. لا تزال واقفة في مكانها بينهما مسافة قصيرة، ويتقاسمان النظر عبر نافذة واحدة، هي تحقق في وحدتها التي لم تعد تدري كيف تتجاوزها لا تنجح في الفرار منها لا في بيتها الصغير ولا في الحافلة ولا في الطريق. كانت ترى ذاك الشيء قريباً بعيداً منها وأكثر ما تخشى أن يتسلل اليها وهي وحيدة في بيتها، لكنّها الان تنتبه أنّها في وحدة

في جميع الأمكنة حتى بين المقربين منها، فلماذا تقلق من موعد تسلله اليها؟!

توقفت الحافلة كانت هناك فتاة على المحطة على الطرف الآخر من الزجاج، لم تحاول أن تسارع الى الحافلة، راحت تنظر اليهما عبر النافذة وتفاجأت عندما رأت ذات النظرات في عيونهما وما كادا ينتبهان اليها حتى تحركت الحافلة، فنظر كل واحد منهما باتجاه الآخر في ذات اللحظة وأشاحا بصرهما في اللحظة ذاتها أيضاً. نظر إلى ساعته، الحادية عشرة والرابع، بقي ربع ساعة، ويتضح له كل شيء.

تقترب الحافلة من المحطة المركزية، حيث سينزل العديد من الركاب ولن يبقى سوى محطتين حتى تصل محطتها الأخيرة التي هي وجهته.

تتوقف الحافلة، شاب وشابة يتعانقان، عددٌ كبير من الركاب ينزل، وعددٌ أقل يصعد، وعندما صعد الراكب الأخير تركت الفتاة يد صديقها، أغلق باب الحافلة، صديقها يناديها، الحافلة بدأت بالتحرك، الفتاة تعدو، وجد نفسه يصرخ منادياً السائق كي يتوقف، لكن السائق لم يعره انتباهاً، واستمر في طريقه. استدار الى الخلف، رأى الفتاة وقد توقفت وجاء صديقها يعدو خلفها ليضمها من جديد. عاد لينظر الى الأمام ماذا يعني أن تفقد هذه الحافلة ستأتي أخرى بعد ربع ساعة، ستكون قد منحت للقائها

بحبيبها عمرًا أطول بربع ساعة، أليس هذا أجمل من أي موعد آخر ستذهب إليه متأخرة ربع ساعة من الزمن؟. فجأة تذكر تلك العجوز التي كانت تحدجه، نظر باحثًا، المقعد بقربه خالٍ، أما هي فتجلس في المقعد المقابل. تأمل قبعتها البيضاء، أحمر الشفاه الذي يطلي شفيتها المزمومتين، قميصها الأزرق وتنورتها البيضاء وتؤكد أنها أكبر مما يوحيه مظهرها الخارجي.

هي تنظر الى الجهة المقابلة للشارع باستغراب ، كيف يبدو الطريق مغايرًا عندما تنظر اليه من وجهة أخرى. لقد اعتادت ان تنظر الى هذه الجهة في طريق عودتها بالحافلة وليس في الذهاب، وها هي الآن تنتبه الى تفاصيل من المكان لم تكن تراها من قبل. توقفت الحافلة نظرت الى الركاب الثلاثة غيرها نزل اثنان واستغربت أن الشاب لم ينزل، أغلق السائق الباب واستمر في الطريق وهي بعدُ مندهشة، هل يقصد المكان الذي تقصده؟ لكنّها لم تره هناك قبل ذلك، أهو موظف جديد؟ أم جاء لزيارة قريب؟.

نظر الى الساعة إنّها الحادية عشرة وخمس وعشرون دقيقة.. يزداد توتره.

تتوقف الحافلة، نهضت العجوز بسرعة، نزلت وبدأت تسير، صوت محرك الحافلة لا يزال مرتفعًا، الحافلة لم تغادر بعد، استغربت.. استدارت الى الخلف، رأته عند باب

الحافلة يحاول النزول بصعوبة، عادت إليه مدت يدها لتمسك بيده وعندما أنزل رجله الى الأرض صرخ متألاً. اشتدّ استغراب العجوز وعندما وقع نظرها على بقعة بنفسجية على ذراعه الأيسر صرخت : يا إلهي!! ما هذا...؟ ابتسم، هز رأسه، وراح يسير ببطء قربها ويحاول أن يعدل مشيته لتكون مثلما كانت سابقاً «أيام الشباب» لكن آلامه تمنعه..

قال: إنها آثار فحوص الدم التي أجريتها، ففي الفحص الأخير تعبت الممرضة وهي تبحث بنصل الإبرة عن الوريد وكانت هذه هي النتيجة.

- يا إلهي يجب أن تذهب الى مستوصف آخر، يجب أن لا تسمح بهذا.

وصلا الى مدخل المشفى اتجه هو نحو الاستعلامات، وهي غابت في الدهاليز. أرشده الى مكان العيادة، وعندما وصل اليها كانت الساعة 11:35 طلبت الممرضة منه الانتظار بعد أن أخذت بطاقته الصحية. جلس بصعوبة، واستغرق في التفكير ترى ماذا ستقول له هذه الطبيبة؟ أخبروه أنها أفضل المتخصصين في المشفى، عليه أن يستمتع بهذه اللحظات التي لا يعلم فيها مدى خطورة مرضه، قبل أن يراها وتؤكد أنه لم يبق له من العيش اليسير الكثير. يسند رأسه الى الحائط يحاول أن يتخيل الوضع الذي يلم

بعضلاته، بعظامه، كان هذا آخر ما يتوقع من أمراض،
أعتقد أنَّ قلبه من سيخونه لكثرة ما نزلت به من عواصف
وصواعق ولكثرة ما نشبت به من حرائق، لقد خانه
جسده وراح رماد حرائقه يترسب في عظامه ينهشه ببطء،
ليجعله عاجزًا.

في الساعة 11:45 طلبت منه الممرضة الدخول، دخل ببطء
وقبل أن ينظر الى الطبيبة راح يستدير ليغلق الباب، فجاءه
صوتها: «هذا أنتَ إذا ..»

استدار، ذهل من هول المفاجأة.. إنها العجوز ذاتها.
أشارت له أن يتقدم ليجلس، بعد أن جلس ابتسمت بودّ،
استغرب منذ زمن لم يبتسم له أي طبيب، ينظرون اليه
بفتور ويهزون برؤوسهم غير راضين.

قالت: «لا تقلق يا بني لقد اطلّعت على فحوصاتك الاخيرة
وملاحظات الأطباء، إنَّ مرضك ليس بالخطورة التي تظن،
انها التهابات بسيطة..»

استمرت بالحديث طويلا عن كيفية العلاج، لكنّه كان بعيدًا
عنها بفكره، كان يفكر بغرفته، بذاك الشيء الذي يطرق
النافذة في الليل يحرق فيه ويأمره أن يذهب معه، أخيرًا
سيرحل عن نافذته.. أخيرًا سيتمكن من النوم دون قلق..

هواجس عند مدام المدينة

أخرج للسير بمرافقة ظلٍ ومساءً يستعد للمجيء، في طريق فيه من الغرباء الكثير..
أتابع خضرة أشجار توشح الطريق، واستغرب كثرة السائرين في مثل هذا الوقت، فعادة ما يقل الزاهبون والقادمون مساء يوم الجمعة.
تقبل علي طفلة تمسك براحه أبيها وأسمع صدى صوتها من بعيد، تتكلم وتكثر من الكلام وعندما تمرّ بي أسمعها تخاطبه بلغتها العبرية «لا أستطيع..»
تساءلت ترى ماذا لا تستطيع، ما همها هذه الصغيرة؟
أهو كما كان همّي يوم كنت في عمرها؟
(كيف يمكن لأرجوحتي أن تصل السماء؟ كيف أحلق قرب العصافير؟ كيف أجعل الريح تحمل طائرتي الورقية؟)

كم رائعة ثرثرتها تلك الطفلة، كنت مثلها ذات يوم كثيرة الكلام منذ تعلمت إتقان الكلام.. اليوم أمضي وحيدة أنا وظلي، والظل يفهم جميع اللغات، فصرت أحادثه في صمتي وعدت كثيرة الثثرة منذ تعلمت إتقان الصمت.. أجدُ الظلَ يربت على كتفي «لا بأس يا صغيرتي ونسير أنا والظل والطريق...».

يقاطعني عن حديثي الصامت صوت يقترب أنظر الى الأمام باحثة، فتاة في مقتبل العمر تقترب وهي تغني بصوت مرتفع، إثر اغنية تسمعها عن طريق جهاز مثبت الى خصرها. صوتها يملأ المكان، واستغربت جرأتها ففي صوتها الكثير من النشاز وتمضي به بشكل جهور كأنما الطريق ملك لها. على بعد أمتار عني صمتت لست أدري هل انتبهت لانتباهي اليها؟ هل شعرت أنها تقاطع حديثي السري..؟ مرّت بقربي بصمت وعندما راحت المسافة بيننا تكبر عاد صوتها ليرتفع.

شعرت بصمتي يكبر يا لجرأتها تسير وحدها وتبعثر الكلام كيفما اتفق، وأنا إن ناديت في صمتي أسمع صدى ندائي في قلبي يحدث هوة وقد تسقط بضع خلايا من ارتداد الصوت ولا من مجيب.. وإن نظرت عيني وبحثت عن شيء من الحقيقة في نور الغد تجد أن كل ما رآته سراب..

سرابٌ إذا وأمضي.. سرابٌ إذا وأسرع.. سرابٌ إذا وأعود الى
وتيرة سيري..

ويمرّ من يمرّ من المارين، من ينشد الرياضة، ومن ينشد
الترويح عن النفس، ومن يبحث عن كنيس، ومن يبحث
عن حلم..

مجموعة من العجائز قبالي يخرجون من بيت متحدثين
باللغة الاسبانية ومع اقترابي شخصت الي عيونهم الثمانية.
عيونهم مثبتة نحوي ربما ميزوا أنني لست منهم.. عندما
ابتعدت سمعتهم يقولون «شبات شالوم» ويفترقون لأربعة
وأربعة عيون.. استغربت تلك الطمأنينة والاسترخاء في
استقبال السبت في هذا الحي من المدينة بينما قد تكون
عائلة أخرى في حيّ مقابل تتلهى بالأحاديث، تحاول أن
تنسى جرح الصباح والنزاع لمحاولة منعها من استقبال
الجمعة..

فجأة ارتفع صوت المؤذن، كلمات عربية تصدح في المكان،
تصل من قرية عربية مجاورة، قد ينزعج القاطنون هنا،
ربما كان عليهم تقديم شكوى لمحكمة العدل العليا تفرض
السجن على الرّيح كي لا تحمل صوتاً عربياً الى هنا..
اقترب من بقعةٍ تطلّ على شرق المدينة.. غالباً ما أقفُ
هناك لأتابع المكان وأنظرُ الى جدارٍ فاصلٍ بدأ كقطعة
صغيرة، وراح يمتد ويكبر كالسرطان، وها قد تم اتمامه

تقريبًا بعد عامين من العمل. من إحدى جهتيه شقُّ له عمق لا بأس به، ومن الجهة الأخرى شارع اسفلتي جديد، هناك في ذاك المكان صمت الجميع لم أسمع سوى زقزقة العصافير.. تساءلت تُرى ما موقف العصافير من قضية وطننا؟ تُرى هل يؤذيها الجدار عند استيقاظها صباحًا، وتجده برماديته يسخر منها كما يسخر مني كلما فتحت نافذتي الشرقية، يسابق الشمس عند تسللها ويبتسم ملقيًا تحية الصباح بحقد، ورغم أنَّ غدر الجار ليس بغريب علي، لا ولا الاصطباح بالجار الحقود علي بجديد، إلا أنَّ عيني لم تعتد يومًا ملقى هذا الجار.. فهل تأذى وطن العصافير؟ هل تنام في جهة وترحل الى الجهة الأخرى في الصباح؟ هل يستوقفها الجدار ويطالبها بالهوية؟ هل تبذل جهدًا أكبر كي تعبّره أم أنَّه مجرد بناء قائم لا يعنياها؟

لو تتقن الكلام تلك العصافير التي تتقافز هنا بقربي في هذا المقطع بين شرق وغرب المدينة لأفصحت.. وقد تقول: «نحن بالسياسية لا شأنَ لنا ولا خبر، كل الاوطان أوطاننا وهذا من شؤون السياسة حسبنا، همنا غصن ظليل، شيء من قوت اليوم، عشُّ دافئ، رقصاتُ السرب، ووداع يوم واستقبال آخر بالغناء والتغريد..»

تغيب الشمس يدعوني الظل للمسير ويسابقني في الطريق، تمرّ بنا قطة واضح عليها إمارات الدلال والغنج.. قلت

لنفسى قد يكون للقطط موقف سياسي محدد أكثر من العصافير، فقد أخبرنا أحد المحاضرين في الجامعة أنّه بعد ان أجرى بحثًا على القطط في شرقي المدينة وغربها، وجد اختلافًا في طبيعتها والأمراض التي تنتشر في وسط القطط «العربية» غيرها عن الأمراض التي تنتشر في وسط القطط «اليهودية». لعلنا إذا نجد موقفًا سياسيًا داعمًا من جانب مجتمع القطط، وقد يساعدونا ضد الاحتلال أكثر من مجتمع بشري يعايشنا.. ومن يدري قد تنظم القطط مظاهرة احتجاجية إسوة بإخوانها من الحمير والاعنام القاطنة في غزة، إذ شاركوا قبل مدة بمظاهرة احتجاجية وأظهروا موقفًا بينما عجز أخوة من البشر عن كسر الصمت ..

أسيرُ وظلي تعكسه ما أضيء من مصابيح.. الظل يمتد يسابقني ولست أدري لماذا هو على عجل.. وأهمس له أني على ضيقٍ وعلى أمل.. وأحارُ بنفسي وأدرك أني لست أدري.. كيف أنشدُ الوحدة لأبتعد عن صخب يومي، وحين تأتي أحبُّها حين.. وأخشاها لأحيانٍ كثيرة.. تبرع في رسم الجدران أمام غدي، في نفص ما علق في ذاكرتي من حزن وحقد وجروح أعملها الغادرون..

أسرع في سيرى وكلمات تتقاذفني «حلم.. وطن.. حياة.. حب.. عمل.. دراسة.. سلام.. أرض.. أمي.. أبي.. شعبي..

مُدْنِي.. وهم.. سراب.. حلم..»
أسارع أكثر حتى أقترَبَ من بيتي لأتهالك عند مقعد
قريبٍ من أرجوحة.. هناك أطفال يستمتعون بالتأرجح
ويتناوبون، وأنا أنظرهم ورغبة جامحة بالتأرجح تعصف
بي.. انتظرتُ.. إنه دورهم الآن ليس دوري، دورهم ليعتلوا
أبواب أحلام طفولية جميلة قد تحملنا إليها الأرجوحة..
بعد أن انطلقوا حان دوري، هناك رحت أتأرجح لست أدري
أين كان الظل يقف؟ هل يتأرجح معي، أم يؤرجحني أم
يجلس على الأرجوحة المقابلة شارد الذهن؟.. لست أدري..
ما أعرفه أنني كنت أنظر الى السماء وأعَبُّ الهواء.. وكنت
كما كنت في طفولتي أتمنى أن تحملني الأرجوحة بعيداً
لأطير.. لأطير وأكون كما هي العصافير..

2010\5\7

هي أسمال ذاكرة

تقتربُ بتوجسٍ من الموظفةِ في المدخلِ لتسألَ عن مكانِ وجودِه.. بعدَ أن ابتعدتُ عن الموظفةِ وتقدمتُ في الرواقِ باتجاه المصعد، شعرت باضطراب شديد.. دخلت المصعدَ وبعد أن أغلق شقاً بابِه، تفقدت محتوى الكيس الذي تحمل، ثم أخرجت مرآة صغيرة لتلقي نظرة سريعة على وجهها، سرعان ما ألقت بها في الحقيبة مع وصول المصعد للطابق المقصود. وجدت أمامها رواقاً طويلاً، راحت تتقدم بخطى قصيرة متباطئة، تنظر الى أرقام الغرف أكثر من مرة لتتأكد أنها لم تعبر الغرفة المطلوبة. كلما اقتربت أكثر ازداد ترددها وفكرت بالعودة. تجدُ نفسَها وجهًا لوجهٍ أمام الغرفة المطلوبة، البابُ ليس مغلقاً كما أنه ليس مفتوحاً على الملأ، تمكنت من تمييز

بعض الوجوه في الداخل، ازدادَ ارتباكها فابتعدت قليلا وهي تحاول أن تجد مكاناً تغيب فيه عن أنظار الخارجين. بعد أن عثرت على مطلبها نظرت الى الساعة، فتنفست الصعداء، إذ لا يزال أمامها ثلاث ساعات من الوقت.

طيلة عشرين دقيقة راحت تنهض كل خمس دقائق لتراقب إن كانت الغرفة قد فرغت، ثم تعود الى مقعدها الخلفي، تمضي بعض الوقت بالنظر الى صور محفوظة في هاتفها النقال، او بمحو رسائل نصية قديمة، تفكر في المغادرة ثم تقول كلا ما دمت قد أتيت سأبقى.

تمرّ نصف ساعة، تتجه نحو الغرفة ليس ثمة صوت ينبعث منها، تلقي نظرة سريعة من الباب المشقوق فتتأكد من خلوها من الزوار. تتراجع قليلا نحو سلة مهملات قريبة لتخرج باقة زهور من الكيس الذي تحمل، تلقي به في القمامة، وتسير نحو باب الغرفة مرة أخرى.

تنظر الى باقة الزهور في يدها وتسخر من نفسها « كم انتظرت أن تصلني باقة كهذه منه، وها أنا بعد كل شيء آتية بواحدة...».

يعود قلبها ليتسارع في نبضه، تهتز أطراف أصابعها وهي تدفع الباب، دخلت ببطء محاذرة ألا يصدر حذاؤها صوتاً، تنظر الى سريرين في الغرفة، وجدته ممداً على أحدهما، وعلى الآخر عجوز تجهله. رأسه معسوب، عيناه مغمضتان،

رجله اليسرى يلفها جبس... معلقةً برباط الى واقٍ حديدي. تستجمع قواها وهي تقترب لتجلس على مقعد قريب، واضح أنه يغط في النوم فلا ترى تراقص عينيه العسليتين. تتمعن في قسَمات وجهه وشعره الأسود تتذكر وتتعجب كيف تنقلب الأحداث والأقدار، قبل عامين فقط كادت أن تكون هي في مثل هذا الموضع بعد لقائهما الأخير. ذاك اللقاء الذي تلقت فيه كلماته كطعنات خنجرٍ في صدرها، وذهب بسنين خمس رصدها من عمرها لحبه بصمت، وهي ترى كل ذاك الود والحب الذي يموج في عينيه كلما التقاهما.. فجأة نضب ذاك النبع وشبَّ حريق أتى على كل ما كان. علمت أنها لم تُجد يوماً اصطناع ابتسامة كما أجادت في ذاك اليوم، وحاولت جاهدة أن تبقى بكامل رزانتها وهو يشجعها على لقاء صديقٍ له يود التعرف عليها، ويدعي أنه يقدم نصيحته كأخ.

لا تدري كيف مرّت تلك اللحظات التي تبقت من لقائهما، وجدت نفسها على الرصيف تبحث عن محطة للحافلة، مثقلة بصدمتها، تنظر الى الشارع ولا تراه، وعندما وقفت لتعبره مرّت سيارة مسرعة ونجت من حادث مؤكد بأعجوبة. في مساء ذاك اليوم قررت أنها ستبذل قصارى جهدها لنفيه عن قلبها.

عامان عمرُ الحب المقتول، عامان وهي تحاول أن تبرّ

بعهدا لذاتها ولا تعلم إن نجحت في أن تشفى منه، فلم تجرؤ أن تلقاه مرّة أخرى. أتنه اليوم ولم تستطع أن تبقى في بعدها عنه بعد أن علمت بوضعه الصحي الحرج. تتيقظ من وجومها عند انتباهها الى باقة الزهور التي في حجرها، تنهض لتضعها على طاولة قريبة، وتعود الى المقعد وهي تتحسس تسارع نبضها، قلبها ينبض بهدوء، فشعرت بشيء من الطمأنينة.

فتح عينيه ببطء وعندما رأى وجهها ظنّ نفسه يحلم. نطق بعد لحظة: « أهذه أنتِ؟ » ابتسمت وقالت: « أجل هذه أنا ».

عاد ذاك البريق القديم الى عينيه وسمعته يقول: « يا الهي كم انت طيبة ». لتشعر بقشعريرة تسري في جسدها حين وضع كف يده اليسرى على كفها الأيمن الذي نسيته ملقى على السرير، باعدت بكفها لترت مرتين على كفه وتقول: « وهل يُعقل أن أعلم أن أخي مريض ولا آتي لعيادته ».

باعد عندها بنظره عنها، وإذ بسعلة حادة تداومه فنهضت مسارعة لتأتيه بكأس ماء، واقتربت تسند رأسه بذراعها وترفعه ليشرب من الكأس.

هدأ قليلا، أنفاسه قريبة من عنقها، نظر اليها بولّه، أما هي فوجدت نفسها تعيده بسرعة الى وضعية استلقائه السابقة وتبتعد. تعجبت من نفسها، شعرت بقوة كبيرة

تداخلها، سألها عن أحوالها وإلى ما آلت إليه أمورها،
أخبرته أنها على خير ما يرام، وأنها ستسافر بعد أن
حصلت على عمل في شركة أجنبية ، سأل بتعجب:- إلى أين ؟
- إلى فرنسا

سأل:- فرنسا.. لماذا؟

- لقد سنحت لي فرصة جيدة للعمل

- حسناً لكن لماذا تغادرين البلاد؟

هنا رأت أنها يجب أن تكون حازمة فلم يعد من حقه أن
يتدخل في شؤونها، فقالت:- لدي أسبابي الخاصة.

صمت... حاولت أن تغير الموضوع، راحت تسأله عن
الحادث وعما حصل، وما هو وضعه الصحي؟ نظرت
إلى الساعة بقي أمامها ساعتان فقررت أنه حان الوقت
للمغادرة، نهضت وتمنت له الشفاء العاجل، سألها:- إلى
أين؟ أبقى.. لم يمضِ على حضورك سوى القليل، انني
مشتاقٌ إليك..

ابتسمت كم كانت تحلم ذات يوم أن يعترف ولو لمرة أنه
اشتاق إليها..

قالت:- يجب أن أكون خلال ساعتين في المطار.. آسفة يجب
أن أذهب.. حمداً لله على سلامتك.

صافحت كف يده الذي حاول أن يضغط على كفها، كان
ذاك الحب الذي أنكره ذات يوم يفيض في عينيه، يدعوها

لأن تقترب، ولم تحاول أن تفعل.
بهدوء سحبت كفها من كفّه، واستدارت وهي تقول:-
وداعاً

فصرخ:- بل الى اللقاء
ابتسمت:- حسناً الى اللقاء.
خرجت من باب الغرفة وأغلقتة دون أن تنظر في عينيه.
تنهدت وبدأت تسير بخطى وثيدة، تحسست نبضها، إنه
على وتيرته، شعرت بسكينة تداخلها واستمرت تجاه
المصعد .

فجأة رأت ممرضتين تركضان في الرواق، استدارت لتتابعهما
بنظرها، لقد دخلتا غرفته، شعرت بالخوف تساءلت هل
ألم به مكروه؟ هل ازداد حاله سوءاً؟ ثم تعود لتقول:» كلا
كان باديًا في حالة جيدة، لا بدّ أنه المريض الذي يشاطره
الغرفة، لن أعود... تنظر الى الساعة في يدها لتؤكد لنفسها
«لم يبق لدي متسعٌ من الوقت» تسير بخطى بطيئة
مترددة..

سمعت صوتًا نسائيًا ينادي «يا آنسه.. هلا توقفتِ»،
ترددت... وبعد أن سمعت الطلب مرّة أخرى توقفت
واستدارت، كانت إحدى الممرضتين بادرتها:» المريض في
غرفة 152«

- ما به؟ هل حصل له شيء؟

- لا.. لا تقلقي ، لكنه استدعاني وتوسل الي أن أعدو خلفك
كي أقول لك أنه.. يحبك
حملقت بها مشدوهة، راحت أفكار كثيرة تتنازع في داخلها،
ترى ماذا ألم به؟ لماذا غير رأيه فجأة؟ تفقدت حال قلبها
وجدته ما يزال في سكينته، فابتسمت وقالت لها:» أخبريه
أن أختك تحبك أيضًا»
وسط دهشة الممرضة استدارت وتابعت سيرها بسرعة،
لم يتبق متسع من الوقت يجب أن تسرع، حياة جديدة
بانتظارها.. قبل أن تغادر المشفى نظرت الى الخلف
وابتسمت، اليوم فقط تأكدت أن كل تلك المشاعر كانت
أسمال ذاكرة.. وخرجت.

أيلول 2010

جدائل الألحان والحروف

(الطقسُ باردٌ بعض الشيء والسحابُ يغطي السماء منذراً بمطرٍ قريب، تتقدم في الشارع تنظر نحو البناية التي اتفقاً أن يلتقيا قريبا، تبحث عنه، إنه ليس هناك، تنظر الى الخلف، لم يقترب من المكان بعد، تحين منها نظرة إلى الساعة، ما تزال هناك خمس دقائق حتى يصل.

شعرت بقطرة ماء على يدها، ثم أخرى على جبينها، رفعت نظرها نحو السماء ونظرت حولها يبدو أن المطر سيشرع بالهطول، فتحت مظلتها ووقفت قرب بناية كبيرة. المطر يسقطُ خفيفاً، تنظر الى ساعتها وتتساءل: «لماذا لم يأت بعد؟». راحت تسيرُ ببطء على الرصيف وتنظر إلى نفسها في واجهات المحال التجارية تارةً وزجاج المركبات المصطفة قرب الرصيف تارةً أخرى، تتساءل كيف تبدو؟ هل سيُدْهش عندما يرى فستانها الزهري وتسريحة شعرها؟

ماذا سيفعل؟ هل سيحاول أن يقبلها؟ لا لن تترك له مجالا ليفعل فعليه أن يسعى كثيراً حتى يحصل على القبله الأولى. نظرت إلى الساعة لقد مرت خمس دقائق عن الموعد ولم يصل بعد، ها هما ما زالا في بداية العلاقة ويتخلف عن موعده ويتركها تقف وحيدة تحت المطر تنتظره. حينما قررت أن تذهب استرعى انتباهها صوت ألحان عذبة، راحت تسترق السمع، إنه عزف على آلة البيانو. يبدو أن أحداً يعزف في البناية التي تقف بقربها، هي ضعيفة جداً أمام هذه الآلة والألحان الرائعة تشعر بأن كلمات تنطوي خلف كل مقطع، إنها ألحان على النمط الكلاسيكي هل هي لبتهوفن أم لموتسارت أم لباخ.. لا لم تسمعها مسبقاً، ولم تستطع أن تبعد كأنما الألحان تتسلل بين قطرات المطر فتوشحها وترسم لوحة تجذبها نحوها فتمنعها من مفارقة المكان.

تستفيق فجأة من شرودها مع إنهاء المعزوفة بإيقاع مرتفع. تتذكر أمر حبيبها الذي تنتظر، لقد مرت عشر سنوات دقيقة ولم يأت، فتسير لتعود على عقيبتها ومختلف الشكوك والظنون تساورها، لماذا يختفي هكذا؟ وكيف يجرو أن يدعها تنتظر كل هذا الوقت ولا يأتي؟. تسير والحزن يتسلل الى قلبها، هل يسخر منها؟ لقد جهزت نفسها ووقفت تنتظره تحت الأمطار ولم يحضر،

كيف يجرو؟ هل يستحق حقاً هذا الانتظار؟.
فجأة سمعت صوتاً يناديها، ولم تلتفت الى الخلف. النداء
استمر، تستدير فإن به يعدو خلفها، يحاول استيقافها،
وقفت تنتظره، وصل لاهثاً ليجد السخط في عينيها، قال
لها :

- اعذريني يا حبيبتي

- كلا.. كيف تتركني أنتظر كل هذا الوقت؟

- مهلاً.. مهلاً لقد تأخرت لأنني بعد أن أنهيت عملي وأردت
المغادرة جاء المدير وطلب مني أن أقوم بمهمة إضافية ولم
أستطع أن أرفض، أنهيتها بسرعة وخرجت لكن الازدحام
المروري أخرني.. أعدك أن هذه آخر مرة
هدأت وقالت:

- حسناً على أية حال أنا لم أبق كل هذه المدة لأجلك ..
كنتُ سأغادر من اللحظة الأولى لولا أن لفتت انتباهي
معزوفة رائعة على البيانو، وأنت تعلم كم أحب هذه الآلة
فلم أستطع أن أتحرك قبل انتهاء المعزوفة
ابتسم: - لا بأس

سارا في الطريق وبعد لحظات رفع كفها الى شفتيه وهمس:
«إنك رائعة»

ليأتي لقاؤهما الثالث بعد يومين، دخلا مقهى وفوجئا
بوجود بيانو ضخم فيه، تجلت ملامح الفرع على

أساريرها، فقال لها:

- ما رأيك أن أعزف لك معزوفة أهديك إياها

نظرت اليه مشدوهة:

- هل تتقن العزف على هذه الآلة ؟

- أجل

- ولمن ستكون المقطوعة ؟

- لي من تأليفي أنا..

فازدادت دهشتها وعجبها، جلس على المقعد وراح يعزف، في البداية شعرت أن الألحان مألوفة لديها وراحت تحاول التذكر أين ومتى سمعت هذه الألحان، وحين أسعفتها الذاكرة نظرت اليه مشدوهة متسائلة أيعقل أن يكون هو..؟ أهو من كان يعزف قبل يومين؟.

عندما انتهى من العزف، نهض ليقف قبالتها، لم تستطع أن تتفوه بأية كلمة، عيناها من أتقنتا الحديث عن دهشتها، قبل راحتها وقال: « أجل هذا أنا ، أنا من عزف لك قبل يومين وهذه المعزوفة هدية حبي اليك... »).

هناك عند الطاولة الصغيرة على ضوء مصباحها تقوم بطي الورقة التي دُونت عليها تلك الكلمات وتنهض لتقف أمام النافذة، ها هو الليل قد حلّ والمطر يهطل. إنها أيام توازي ذلك اليوم الذي كان فيه لقاؤهما الثاني قبل عامين،

وها هو يحاول أن يصوغ اللقاء بقصة وخاطرة.. لكن أين هو الآن؟ هو يمكث في دولة أخرى لإكمال دراسته الجامعية وهي في مدينة بعيدة عن بلدتها من أجل دراستها أيضًا، اليوم عيد ميلادها وهي وحيدة في غربتها حتى صديقاتها اللواتي يشاطرنها الشقة غير موجودات، لم يحضر لها أحد كعكة ويحتفل بها، وليس من يجالسها سوى الوحدة. توقف المطر عن الهطول ارتدت معطفها وخرجت الى الطريق. لقد أحب الموسيقى وأتقن التأليف الموسيقي، لكن قلما عزف مقطوعات للموسيقين، أمّا هي.. فإنّها على نقضه تبرع في عزف معزوفات غيرها ويصعب عليها انتاج وتأليف الحان بقواها الذاتية. سألته ذات مرّة لماذا لم يتجه لدراسة الموسيقى والأدب..؟ فقال بأنهما لن يكفياه ويوفرا له حياة مادية مريحة.. وأنّه يعزف ويكتب ليفجر طاقة مخزونة في داخله.. يقتل أحزانه على أوتار آله، وبعد أن التقاها لم يعد يقتل أحزانه فقط بل أيضًا يبعث الحياة والفرح في نفسه وهو يعزف حبًا لها ويهديها معزوفاته. كم حاولت إقناعه الاشتراك بمعهد معين ونشر ألحانه، واعتبرت تخلفه عن ذلك أنانية واحتكارًا لألحانه. لتلقاها ابتسامته قائلاً: «هل تعتقدين يا عزيزتي بأن المجتمع يجلس وينتظر إنتاجي بتلف، سأحتاج حربًا وصراعًا يدوم سنين حتى تجدي أحداً يستطيع أن يتذكر اسمي

فقط.. وهذا بحاجة الى تفرغ وكما ترين أنا لست متفرغاً..
ثم هل نسيت الدواخل على فنوننا، والنوع الذي أقدمه من
الموسيقى والأدب ليس في نطاق اهتمام الجمهور..
نظرت إليه يومها وقالت كلمات ندمت على قولها لاحقاً:
«أنت تجعل أحزان وخيبات الماضي تسيطر عليك الى درجة
أنك لم تعد تحاول، تتخذ قرارات مسبقة دون أن تنال
شرف التجربة، وإن كان ثمة ما لا يرضيك في هذه الدواخل
كما تقول فعليك أن تحارب وتمنع.. لا أن تجلس مكتوف
اليدين مغمض العينين. لو فكر الجميع مثلك لما وجدنا في
الأجيال الصاعدة كاتباً أو فناناً يشق طريقه ويصرخ أنا
هنا »

شاهدت ضيقاً على وجهه وصمتاً يعتقد لسانه فحاولت أن
تحفف من صرامتها لتستطرد:» ربما التحدي الذي أماننا
الان هو أكبر من ذاك الذي كان أمام الكتاب العظام الذين
أثبتوا أنفسهم في القرن الماضي مع استقلال الدول العربية،
ان كان هناك عدد محدود منهم في كل دولة وبعد أن وصلوا
الى مرحلة النشر بفترة قصيرة ينتشر اسمهم في أوساط
معينة في مجتمعهم، ويزداد تطورهم شيئاً فشيئاً ويكون
الانفتاح على العالم العربي أسهل مما نواجه كأقلية في هذه
الدولة، خاصة مع تطور أدوات ووسائل النشر وازدياد
المنتجين مقابل قلة المتلقين، لكن هذا لا يعني الاستسلام

ويجب على صوتك أن يعلو بين الأصوات وتنتصر..»
بقي على صمته، انتابها ندم شديد تلك الليلة على ما
تفوهت به وتمنت لو أنّها لم تفعل خاصة أنّه كان على
سفر في اليوم التالي. حاولت أن تتحدث في شتى المواضيع
وعن حبها له لكنّه بقي معكر المزاج.

هنا تتنهد وتستمر بالسير في الطريق وحيدة وقلما تمر
سيارات أو حافلاتٌ بقربها.. في يوم سفره الذي كان قبل
عام وقفت أمامه غير مصدقة أنّها ستحتمل أن تعيش
عامًا أو أكثر دون أن تراه، في ذلك اليوم ولدت قبلتهما
الأولى.. ورسالة أبقاها في يدها طالبا منها عدم قراءتها الا
بعد أن يغادر.. ليتواعدا على التواصل والتغلب على الغربة
والفراق.. وذهب.

بقي يظهر عبر برامج الحادثة على الشبكة العنكبوتية،
وبقي ذاك الحب في صدريهما يكبر.. يحاول كل منهما
الوقوف على ما يلم بالآخر من ظروف وتغيير..

تعود للتنهد ناظرة في فراغ الطريق، هذا التواصل لا يغني
يومًا عن اللقاء.. لو كان هنا.. ربما لابتسم الآن وعاد إليها
بقصيدة نثرية كتلك التي كتبها ذات يوم.. وسارت نحو
البنية ترددها لنفسها..

(تعبثين يا حلوتي تعبثين.. وبلهيب النار تتلاعبين.. حين
يطغى الخيال على دنياك ويقيم... وبين بقع السواد..

تتراكضين.. ظنك تزدادين ابتعادًا عنها الى النور، فإذا بك تهوين الى الجحيم.

وعندما تنتظري أن تقرر زجاج نوافذك.. يدُ تنشك من الخطب العظيم.. تعبثين.. فاليد من جثث الأحلام تنسجين، والفُلكُ لا يقف حيثما ألقىتِ المرساة كيفما تصطفين).

عند دخولها البناية سمعت صوت خطوات أحد في مطلع الدرج، توجهت الى شقتها لتفاجأ بزهرة جورية حمراء وقربها علبة ملفوفة بورق زينة. نزعت الغلاف لتجد اسطوانة موسيقية بعنوان (جداول الألحان والحروف) ويليها اسم حبيبها ثم اهداء «إلى التي فجرت النغمة والكلمة من دواخلي الى حبيبتي نسيم» وفي داخل العلبة وجدت دفترًا مرفقًا مع الاسطوانة بحيث تحمل كل معزوفة قصيدة أو خاطرة توجه المستمع الى فكرة المعزوفة.

ووسط دهشتها مما ترى، سمعت صوت خطواتٍ خلفها، لكنّها لم تستطع أن تستدير اذ سرعان ما شدتها ذراعٌ وهمسَ صوتٌ دافئ في أذنها: «كل عام وأنت بخير حبيبتي...».

2007\9\26

شجرة الزنلخت¹

أغراني انسجام الهدوء وصوتها، وهذا النسيم العليل في
أواسط آب أن أجلس الى أوراقى وكتبي وأعود لأتسامر معهم
وأقضي الوقت.. وكنت بين الفينة والأخرى أراهم يحدقون بي
جميعهم.. أحداً منهم لا يعلم من هذه الفتاة.. كل منهم
يجلس مقتنعاً بإطاره ويحدق بي من خلف الزجاج..
وأنا أنظر اليهم وأبتسم، وأتناسى وجودهم في بعض
الأحيان.. بالكاد أعرف شيئاً عنهم.. لكن قدّر الله لي أن
أجلس في تلك الغرفة التي جعلتها متحفاً لهم، كلما عدت
الى قريتي.. أحياناً نتبادل الأحاديث السرية.. ونستمع
أحياناً الى أخبارٍ تصل من مذياع عمّتي.. وأحياناً يبقى
كل منا على صمته، ننتظر.. ربما الفراغ.. أو قدوم زائرٍ
جديد.. وربما ننتظر أن نسمع صوتها وأوراقها تراقص
النسيم فيقطع على الحارة صمتها..

1 شجرة الزنلخت - شجرة زينة ثمارها صغيرة ومدورة.

هنا الحارة القديمة حيث يخبرني معظم سكان القرية أنه كانت بينهم وبيننا جيرة قديمة قبل أن يترك بيته ويبتعد الى منطقة أخرى.. وهنا أمام بيتنا كان جزء من السوق القديم الذي أغلق أبوابه منذ عشرة أعوام.. وهنا كنا نحن أيضاً أطفال هذه الحارة..

أما اليوم حوانيت حيّنا أغلقت.. ونحن كبرنا، فافترقنا ورحلنا.. لم يبق من آثار تلك الأيام سوى شجرة الزنلخت قرب بيتنا..

ولهذه الشجرة قصة ولادة غريبة.. إذ وُلدت إثر حروب شلة حارتنّا مع شلة حارة أخرى، أتوا يريدون أن يسيطروا على أماكن لعبنا، فصرنا نقطف ثمار الزنلخت من شجرة شرقي الحارة نملؤ بها جيوبنا ونأتي الى موقع المعركة قبالة بيتي لنقصفها عليهم.. وغالبًا ما كنا ننتصر ونجعلهم يرحلون، لكن أحداً من الكبار الذين سمعوا بحروبنا تلك لم يطلق علينا لقب أطفال الزنلخت. ويبدو أن عددًا من الثمار سقط في حوض زهورنا اثناء تلك المعارك.. وكبرت الثمرة لتصبح شتلة واشتدّ عودها عامًا بعد عام.. لكنّها بقيت موقع وعيد، فكلما التقى بنا جارنا ينصح أُمّي بقطعها لأنّها تجلب سوء الحظ، وكلما زارنا الخريف تكتسي الأرض بأغصانها وأوراقها فيزداد وعيد أُمّي باقتطاعها.. وتؤجل ذلك للعام التالي..

تركت قرّيتي وانتقلت الى منطقة أخرى.. وصرت كلما أعود أجدُ الشجرة تكبر ومعها يكبر وطنٌ حديث للعصافير..

عشرة أعوام انقضت منذ أن رحلنا جميعاً، شلة الحارة وأصحاب الدكاكين. ولم يعد أصحاب الزيارات المتباعدة لحيناً هذا الهدوء.. لم يسمع أحد منهم أناشيد الشجرة وغناء العصافير.. هذه الشجرة التي أصبحت أجمل ما تركت طفولتي.. وبقيت حبوب الزنلخت تطل عليّ تذكروني بانتصار قديم كان لنا ذات يوم..

فقررت أن قرار قطعها أصبح غير قابل للتنفيذ ولم أعر وعيد أمي للشجرة قبل يومين اهتماماً، فقد اعتدت الوعيد. وبينما أنا منسجمة بأفكاري أتبادل النظرات أحياناً مع أجدادي قاسم وفريد ومحمد ونجيب وأسعد وحسين.. وأقرأ في كتبي، راحت أناشيد الشجرة تغيب، وأصوات العصافير تبتعد.. لم يكن هذه المرة صوت المذيع يعلن عن وقوع ضحايا أخرى في غزة أو إغلاق في القدس.. هناك صوت آلة كهربائية، احترت في البداية ما هو نوعها؟ واستغربت ماذا يفعل جارنا الآن..؟ وحينما ارتفع صوت شيء سقط، هببت راكضة، رأيت فرعاً كبيراً قد سقط مسجى قرب أمه الشجرة، العصافير ابتعدت.. وأنا واقفة هناك استجمع بقايا صوتي لأصرخ بصاحب المنشار: «ابتعد.. ابتعد.. لا لن تسقط هذه الشجرة..

لن تسقط شجرة الزنلخت».

وميضٌ عند الهاوية

نظرتُ اليه، فألفيته على حاله.. ما زال يرسم، اقتربتُ فوجدتُ أن أسلوبه في الرسم قد تحسن. نظر الي وابتسم بأمَلٍ هامسًا «ستعود...».

عندما حضر الي في ذلك اليوم المشؤوم من حياته كان في حالة يرثى لها، انفجر بالبكاء وراح يصرخ «أخذوها.. أخذوها»، رحت أحاول التهدئة من روعه، وأن أفهم ماذا حصل. لكن بعد أن هدأ أخفى وجهه براحتيه وصمت، وبعد أن طال صمته لست أدري كيف خطر لي ذلك الخاطر فقلتُ له: «ارسمها...».

بعد أيام كانت وسائل الاعلام كفيلة بأن أفهم ما حصل، ولكن غابت عن ذهني تلك الكلمة التي قلتها له محض صدفة، الى أن سمعت بعد مدة زميلاتي من المعلمات في

المدرسة يتحدثن عنه قائلات أنه صار يستغل أوقات الفراغ بين الحصص للرسم، وأثناء الحصص يبقى شارد الذهن.. ذهبت لأراه اذ لم أعلم عن تغير أحواله بعد انقطاعه عن الحضور إليّ لتلقي الدروس الخصوصية.

كان جالساً الى مقعده منكباً على رسمته، وعندما اقتربتُ، رفع نظره نحوي وسألني: «أهي جميلة؟»، أومأت برأسي علامة الإيجاب، ليعود بعد لحظات ويؤكد أنها لا بدّ وتعود. رثيتُ لحاله ولم أستطع أن أطلعه على هواجسي وخشيتي من عدم عودتها. استمر بالرسم وبقي حتى نهاية العام الدراسي يأتي الي ليطلعني على لوحاته..

أدركتُ مدى حبه لها فقد كانت تلك الأرض الواقعة قريباً من قرية سلوان متنفساً له ولعائلته، قضى طفولته بين أشجارها وغرس عدداً من أشثال اللوز والليمون في رقعة خاصة به منها، كان يحدثني عنها ببهجة يتابع الاشجار ويقارن طول قامته بطولها، وفجأة ضاع كل شيء حينما فشلت عائلته بالتصدي للمستوطنين الذين حضروا بعتادهم وسلاحهم واستولوا عليها.

أخبرني أنه يتسلل أحياناً اليها في الليل لينظر الى أشجاره ويطمئن عليها، لكنهم رأوه ذات مرة وأطلقوا النيران عليه ونجا بأعجوبة.

انتقل من المدرسة مع إنهائه المرحلة الابتدائية في ذلك

العام، وانقطعت أخباره عني.
بعد بضع سنوات مررت الى حوش الفن الفلسطيني في
شارع الزهراء في القدس، كعادتي لأطلع على معرض رسم
افتتح هناك، وعندما دخلت شاهدت رسوماتٍ شعرت أنّها
مألوفة لدي ولفت انتباهي لوحة كبيرة تتوسط إحدى
غرف المعرض، وما ان اقتربت منها حتى أتاني صوته
الذي تغير : «ما رأيك أهي جميلة؟»
- «إنها رائعة..»
ابتسم، بقيت عيناه الحالتان تتجهان الى لوحته ليقول
بذات الثقة: «ستعود..»

أيلول 2011

وهم قصيدة

دقيقتان.. والنبض في صدرها يزداد.. تشعر بقشعريرة..
أو بتنميلة في أطرافها.. ويسقط من عمر الانتظار ربع
دقيقة.. تتذكر خلالها قصيدة، تبحث عن إلقائها بصوت
شاعرها على شاشة الهاتف النقال.. عمر القصيدة أطول
بدقيقة من عمر الانتظار المتبقي. ستسمعها.. لعلها تعزيها
بما لاقى صاحبها يوم كتبها، حين خانه انتظاره ورفض
الانتحار.

ويأتيها صوت درويش تؤكد كلماته ملامح خيبة تخشاها،
يوم خالف حلمه الموعد فقال: «لم تأتِ قلتُ ولن.. إذا
سأعيد ترتيب المساء.. بما يليق بخيبتني وغيابها..» تتساءل
ما الذي سيليق بخيبتها هذا الصباح؟.. إن هي لم تلقه..
كيف سترتب ذاتها، وبأي أملٍ ستقنع نفسها.. إن فشلت

للمرة الخامسة في العثور عليه.

ويوقظها الشاعر في القصيدة: «قلتُ: لن تأتي» قد فعلتها هذه القصيدة في مرة سابقة، وجهزتها لاحتمالات خيبة، وصدق يومها حدسُ القصيدة مثلما صدق حدسُها..
أيمكن أن تفعلها القصيدة مرة أخرى..؟

تتبقى مسافة قصيرة.. لتهز رأسها، لا لن تُعدَّ قلبها لاحتمالات الغياب.. تنظر الى المرأة وتبتسم، تنظم خصلة من شعرها، وتؤكد لنفسها.. قد آن للشهور الممتدة بينهما من اختزال.

تصغي لهمس الكلمات عبر السماعه المثبتة على أذنها.. احتمالات اللقاء تتسرب من بين الأبيات وتعيدُ القصيدة كل أشياء الاحتفال، وكل احتمالات الفرح الى أماكنها، تفضُ عنها زينتها، وتقبعُ بين ذراعي شاعر عذِّبه تمهل اللقاء، ففض عن جسده حزام الانتظار وجلس القرفصاء مرتاحاً يكتبها، ليطلعها هي عن خيبته ذات مساءٍ، حلم فيه وفشل.. ليؤكد لها «لن تأتي...».

تَوْقِفُ بسرعة همس الشاعر عبر الجهاز..

قريباً على بعد أمتارٍ قليلة عن المكان تركن مركبتها، تنظر حولها وتبتسم حين تعثر على مركبته في المكان، وتزول بعض الشيء احتمالات الغياب. تلقى نظرة سريعة على المرأة، تلملم أشياء قليلة وتسارع بالنزول.. قد حان لعمر

الانتظار أن يتوقف. تغلق باب السيارة بسرعة، فمنذ زمنٍ
لم ترَ عينيها في عينيه.. ولم يعد في هذه اللحظة القصيرة
الفارقة من متسع لفواصل زمنية صغيرة.

جالسًا كفه بين راحتيها معلقة، تشتد على أناملها فيما
تنظرها عيناه لحظة وتغيب عنها، لتحتمي شفاته من وزر
الكلام بالصمت.. واقفة بجانبه.. ترتب أنامله في كفها..
وتعيدُ البحث في عينيه وفي شفثيها عن كلمات.. يعاودها
صدى القصيدة «لن تأتي..»

تبتسم وتقترب..: «أين صارت عيناك؟».
وحين استدار.. راح يضيع همس العبارة، وراح وهج من
عينيه يستبيح الأبيات.

2012\1\9

خيمة..

وقفتُ أهدقُ فيها، أتأملها ومختلف من المشاعر الحزينة
تتراكم في داخلي، أمّا هي فقد وقفت بقربي نظرت اليها
وابتسمت، وشعرتُ بشيءٍ من الاعتزاز في نظرتها..

أهدق في هذا المعرض النموذجي لها.. خيمةٌ بيضاء.. بل
مخيم كبير.. أتخيل مختلف مخيمات شتاتنا الفلسطيني
على أرض وطننا وفي خارجه من مخيم جنين، شعفاط،
اليرموك، صبرا، شاتيلا، النهر البارد.. والقائمة تطول
وتطول.. ما بين السواد والحزن الذي يغطي أقمشة المخيم
البيضاء، لاحت ابتسامتها..

رحت أتأملها بطرف عيني، هذه الشّابه الشّقاء، البيضاء،
التي لا أعلم من أين أتت؟ من هولندا، أم من بولندا، أم
من روسيا؟ لماذا لا تقدر مشاعري وتقف بهذه النظرات

خيمة..

قربي.. ثم حولت نظري عنها، وعن المخيم لأنظر حولي، فأفقت من شرودي واستدركت..

لقد ظلمتها، لماذا أسخط على هذه الحسنة؟ ألا أدرك أين أقف الآن..؟ إنني في الجامعة العبرية - جبل المشارف، وهل يُعقل أن ينصب هنا مخيمٌ رمزي لذكرى نكبتنا..؟ بالطبع لا..

هنا يحمل المخيم معنى آخر.. الخيمة هنا تظهر الاعتزاز والمطالبة بالحقوق الاجتماعية، الخيمة هنا ذهب إليها أصحابها قبل أشهر، بمحض إرادتهم وأقاموا فيها في مراكز المدن في تل أبيب وحيفا وأشدود وغيرها.. إنها لا تشبه الخيمة التي في ذاكرتي.. ولا تقصد ذلك رغم بياضها، كلا إنها تحمل رسالة جديدة..

استدرتُ لأمضي لشأني وصادف أن استدارت الفتاة أيضًا.. فاصطدمنا، وتعلقت نظراتي بكوفية تحيط عنقها، هي ليست مثل كوفيتي.. إنها تشبهها، لكن هذه لن تغيب شرطياً أو جندياً.. هذه الكوفية الملونة مسالمة، مثل الخيمة الاجتماعية اللطيفة، هنا..

حدقتُ في عيني الفتاة رأيتُ شبح بسمه، وفيما رحّت أحاول ردّ دمعة عن عيني.. قالت: «سليخا»، وسارت كل منّا في مسار..

2011\12\7

عودة من الغياب

تفتح الباب وتدخل ببطء.. كم هي متعبة بعد يومٍ من العمل الشاق.. الأنوار مطفأة، لكنّها رأّت سيارتها هنا، لا بدّ أنّها في غرفتها. تستدير لتغلق الباب خلفها، يأتيتها صوت ضحك مرتفع.. تتجمد للحظة تُرى ماذا أصابها..؟ تسارعُ نحو الغرفة.. تفتح الباب بسرعة لتطلق صرخة بفزع.. ها هي ابنتها مرة أخرى وسط بقعة من الدماء.. تركزُ نحوها، فتستوقفها الأخرى مشيرة الى النافذة: «لقد هرب من هناك..».

* * *

تخرجُ من الكلية بخطواتٍ وثيدة.. حدس بداخلها يدفعها لأن تذهب الى المنزل.. من يدري ماذا يمكن أن يحصل إن تغيبت عنه أكثر؟ ثم أنّها لم تعد تتمكن من التركيز

في المحاضرة، خاصة أن صديقتها الوحيدتين في الصف تبدوان غير مهتمتين بها، لم يعد قلقها يعنيهما.. حتى أنهما بالكاد تسألان كيف الحال؟

تفتح باب السيارة لتدخل، لكنها تتوقف للحظة، تنظر حولها.. لا أحد يراقبها الآن. القلق لا يفارقها.. تدخل ببطء.. تنصت.. وتتنظر في المرأة الى المقعد الخلفي.. فلا ترى أحداً.. تدير المفتاح وتشغل المحرك وتنطلق.. ترى هل تمكن أحد من الدخول الى البيت..؟.

يعود تركيزها الى المقعد الخلفي إنها تسمعه يتنفس.. بل وتشم رائحته.. تصل الى شارة ضوئية حمراء، تتوقف.. ما زالت تشعر بوجوده.. لا تجرؤ على الالتفات الى الخلف. ترى الى متى سيستمر بملاحقتها..؟ لماذا لا يريد أن يرحل عنها..؟ تتحول الشارة الى اللون الأخضر، تدوس بسرعة على دواسة البنزين نحو المنزل.

تركن السيارة بسرعة، تقفز خارجة منها ولا تحاول النظر الى المقعد الخلفي. تسرع بالصعود الى البيت.. تفتح الباب وتوصده، تشعل الأنوار وتبدأ بالمرور على الغرف، غرفة تلو أخرى.

لا أحد هناك تشعر ببعض الراحة.. تدخل الى غرفتها.. تستلقي على السرير.. فجأة تسمع صوت تنفس، تنهض فزعمة.. صارخة: «أين أنت؟»

تستجمع أنفاسها لتستطرد: «لماذا تبعثني الى هنا؟ ماذا تريد مني؟»

لكنّه لا يظهر.. تقول: «حسنًا أنا سأريك..» تنهض عن السرير، تسارع الى المطبخ تأخذ سكينًا وتعود الى الغرفة.. - أين أنت؟ أين تختبئ؟ أعلم أنك هنا؟ لقد شعرت بذلك ولذا عدت الى البيت..

تمرّ دقيقة تسمع التنفس، ولا يظهر تصرخ: - أنا سأريك تخلع سروالها.. السكين ما تزال في يدها.. تنظر حولها، لم يظهر بعد لكنه هنا.. هي متأكدة من هذا.. تمرّ بالسكين على عضلة فخذه، ليمتد جرح طولي يتجاوز العشرة سنتيمترات والدم يبدأ بالتدفق.. تنظر الى دمها بذهول.. تحاول أن تبحث عن صوت أنفاسه، فلا تسمعه.. تنفجر ضاحكة: - «لقد ذهب.. لقد ذهب.. لا بدّ أنه غافلني وقفز من النافذة».

* * *

تنظر اليها في اكتسائها ثوبًا أبيض.. وتشرد بعيدًا، تسأل نفسها: «لماذا علينا أن نعاني منه حتى اليوم..؟» تسمع صوتًا بقربها فتنتظر، إنّهُ الطبيب.. يبادر بالسؤال: - أهى ابنتك ؟ - أجل -

تشعر أنّها في عالم بعيدٍ عمّن يحيطها، تحديق بها، وبها

فقط، ها هم بأرديتهم البيضاء يقفون قريباً منها يؤكدون
أنّ ابنتها هي من آذت نفسها.. وأنّ هذا النوع من الأذى
يمنحها شيئاً من الفرح الداخلي.

يطلّ أحدهم من الخلف ويقول: - حالتها هذه المرّة
أصعب من المرّة السابقة.. لم تعد الأدوية السابقة تكفي
سنضيف نصف مليغرام كسناكس وخمسة مليغرامات
زيبركسا للعلاج وقت الحاجة.

يقول آخر: - الوضع النفسي يزداد سوءاً.. تتخيل أنّ أحداً
معها في سيارتها أثناء القيادة، لقد أخبرتني بهذا في
الفحص السابق.. وأعتقد أنّه والدها.. لكنّها لا تعترف،
هناك أمر ترفض أن تقول به هذا الشأن.

تهزّ الأم رأسها ساخرة وتذكره بأيّ حال مزرٍ كان يعود
كل ليلة بعد أن أدمن الكحول.. كم عانت هذه الفتاة من
وجوده، وكيف طردته هي آخر مرّة.. وطالبت بالطلاق..
نظر إليها وهو يترنح ورفع اصبعه يلوّح به: «راح
أرجعلكم...»

وها هو يعود ويعود..

2012\5\5

فوق الركام وخلف الدخان

يوقعها البرد والليل في أسئلة كثيرة.. «هل تكفيهم هذه الأغطية؟ ماذا يتستر خلف النافذة..؟ ومن يتخفى خلف الجدار الذي تستند إليه؟»

وتوقعها القنابل في فخ سؤال ملح.. «هل سترهم غداً..؟»
تنظر اليهم، أخيراً تمكنوا من النوم.. تباغتها رغبة في البكاء..

يدوي صوتُ انفجارٍ بعيد.. ويتقلب الأطفالُ في الفراش دون أن يستيقظوا، فتحمد الله.

تتساءل هل تبقى شيء على ما كان عليه من حيّها القديم..؟
شجرة النخيل الأخيرة التي بقيت صامدة هناك سقطت في الحرب الأخيرة.. ومعظم أماكن طفولتها قد تغيرت إمّا بفعل القاطنين أو بفعل الحروب.. كان هناك سورٌ حجري

قديم استخدموه كبرج للمراقبة، في طفولتهم.. أخبروها أنه قد سقط منذ يومين.. كانت تحبه كثيراً وتشعرُ بفرح شديد كلما تسلقته ووقفت تدعو أترابها لخطة جديدة للّعب..

فجأة يرتفع صوتٌ دويٍّ شديد تهتز على أثره أركان الغرفة، فيقفز الأطفال من فراشهم فزعين.. يتشبثون بثوبها وبجسدها المنهك.. ويعود صغيرها محمد ابن الرابعة إلى سؤال لا يكف عن طرحه: «يُما..! ويمتى راح نموت؟» تشدّه الى صدرها، تحاول بجهدٍ حبس دموعها، تعض على شفرتها السفلى وتتذكر..

يسري الخوف في أوصالها.. تغمضُ عينيها وتنتظر أن يمرّ ملكُ الموت سريعاً ويرحل تاركاً إياها وصغارها بسلام.. ألا يكفيها ما أخذ منها قبل نحو أربعة أعوام..؟ حينما وقفت تنظر الى خيطان السترة الزيتية التي حاكتها له.. ويسألونها أهذا هو..؟ وتهزُّ رأسها بطريقة آلية فلا يفهمون أتجيبهم بنعم أم لا..؟ دون أن تتمكن من نطق كلمة واحدة، كيف تعترف أنّ زوجها وحبيبها صارت عنوانه تلك الخيطان الصوفية؟!.

تنهار أمام الركام الذي كان بيتهًا، تنتظر الرجال وهم يرفعون ويقلبون الردم الى أن ظهرت يدُ صغيرتها سوار، فقامت كالمجنونة تمسكها وتقبلها.. تحاول عبثاً أن تقنع

نفسها أنّ هذه البرودة في الجسد ليست حقيقية.. هي محض صدفة، لا بدّ أنّ طفلتها ما تزال على قيد الحياة.. تُزال القطعة الكبيرة من الردم وتنكشف عن سوار وأختها ملاك.. الطفلتان صاحبتان مثلما لم تعدهما من قبل، وما تزال عيون ملاك مثبتة على الدمية الراقدة بقربها.

تنظر بذهول، تتساءل أهو كابوس.. أم ماذا؟
تسمعهم يقولون: «لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنّنا لله وإنّا اليه راجعون..»

تصرخ: «لا.. لا بناتي بعدهن عايشات». تهزّ جسديهما الصغيرين.. لكن عبثاً فعلت.. لم تنمّ أي حركة عنهما.. بقيت متجمدة قربهما للحظات تحاول أن تفهم ما الذي حصل..؟ لم تتخيل للحظة عندما ذهب لتعود أمّها في بيت حانون مصطحبة أبناءها الثلاثة هؤلاء... أنّها المرّة الأخيرة التي ترى فيها صغيرتيها..

تضم أطفالها إليها.. تنزلق الدموع على وجنتيها.. ليعلو صوتٌ مرعب ويسقط زجاج النافذة. تندفعُ سحبٌ من الدخان الى الغرفة، ليصرخ محمد سائلاً: «يُمّا! راح نموت إيسا؟»

تنهمر الدموع من عينيها ويعلو بكاء الصغار المرتعدين.. تزداد عتمة الغرفة.. فيتجه نظرها إلى أعلى وتتمتم «يا رب».

راح الأطفال يسعلون.. تسمع صوت أقدام تجري في الخارج، وصوتٌ منخفض لأزيز طائفة، تفتح الباب، لتجد الغبار والدخان يملآن الأجواء.. تعاود النظر الى صغارها وتداخلها الحيرة.. أخرج بهم الى مكانٍ آخر..؟! فقد يختنقون هنا.. ولكن ماذا لو لاقتهم قذيفة جديدة..؟ تعاودها ذكرى زوجها والصغيرتين.. تشعر أنّ لا مناص.. ما من ملجأ.. لم يبق لها أيّ شيء سوى أنّ تمرّ هذه اللحظات سريعاً.. تشعر بقواها خائرة.. لم تتمكن سوى من الصراخ « بكفي.. بدنا نعيش.. » يرتفع صوتٌ دويّ جديد.. ولم يسمعها أحد..

تشرين الثاني 2012

رهبة البناية

تنظر حولها.. جميعهم هادئون، لا أحد يصدر صوتًا..
الرواق أنواره خافته.. أبنائها لم يأتوا اليوم..
تنهض عن السرير وتمضي لتلقي نظرة نحو الرواق، لا
أحد هناك.. تعود لتجلس على حافة السرير تتساءل:
«أحقًا لم يعودوا يكثرثون لأمرى..
هل حان الوقت..؟»

تتخذ قرارها بسرعة، تجمع أشياءها القليلة في كيس،
تستبدل سترتها.. وتسير بحذر لئلا توقظ أحدًا. تطلّ
عند الباب مرة أخرى.. لا أحد في الرواق.. تسير بسرعة
تظهر أضواء قليلة من النوافذ فالبحر ابتلعه الليل.. تنزل
الأدراج بسرعة وتسير بمحاذاة البناية القريبة فهي تذكر
تمامًا أنّ المدخل من هناك.. الحارسان منشغلان بالحديث،
ولا يهتمان بمن يخرج، فالداخلون يثيرون الاهتمام أكثر.

سارت عبر البوابة اللولبية اجتازتها لتنعطف يسارًا سارت
خمسین مترًا ولم يستوقفها أحد فتنفس الصعداء..
وسارعت بقطع الشارع.

* * *

خرجتُ من عملي في المستشفى منهكة وسرتُ نحو منزلي في
البناية القريبة، الساعة الثامنة مساءً اقتربت من المدخل
ونظرتُ الى واقى الدرج الملتوي، وباب غرفة مهملة تقع
قبالة الأدراج وشق في الباب يزيد من وحشة المكان. قرب
الباب تقع أزرار الكهرباء لاشعال النور.. اقتربت لأضغط
الزر، فحانت مني نظرة الى داخل تلك الغرفة، لم أر شيئاً
في الظلام وكنت على رأيي أنه يمكن أن تُخفى فيها جثة
لبعض الوقت حتى ينتبه اليها أحد. قلت هذا قبل أيام
لزميلتي التي تعمل معي وتشاطرني السكن في المنزل
فطلبت أن أتخلّى عن أفكاري البوليسية، وأن لا أشغل
منصب بوارو أو شارلوك هولمز².

أضأت الأنوار وصعدت الى الدور الأول محاولة نسيان كلام
(ناتي) كله.. لا أعلم من أين أتتنا هذه الجارة؟ تعرفنا
عليها مصادفة وجاءت لزيارتنا قبل أسبوعين، وبعد أن
تعرفت علينا راحت تشرح لنا عن سكان البناية وبدأت
تقص علينا قصصاً عجيبة، ثم أخرجت ورقة وراحت
ترسم المنازل في الدور الرابع حيث شققتنا لتحدد لنا تمامًا

2 بوارو وشارلوك هولمز – المحققان البوليسيان اللذان استخدمهما كل من الكاتبين
الانجليزيين أغاثا كريستي وارثر كونان دويل (على التوالي) في رواياتهم.

أين يسكن «الرجل المربع».

قالت لنا إنه طويل، ضخّم وله بطن كبيرة جدًا.. وجهه غريب وكان يقرع الباب على إحدى جاراتنا الشابات ويثير خوفها، وصادف مرّة أنّها وجدته أمام باب بيته عندما كانت صاعدة الى شقتها، وفي لحظة مرورها به ارتفع صوت تنفسه بطريقة غريبة فأسرعت الى شقتها لتدخل وتقفّل باب منزلها، وما لبثت أن رأته من العين الكاشفة قادمًا يقترب من الباب، نظر نحو العين في الباب وبقي لعدة لحظات أصدر خلالها أصواتًا غريبة..

وادّعت أنه فعلها مرّة أخرى وجاء ليقف أمام الباب.. فهو يختبئ خلف بابّه وينظر الى من يمرّ في الرواق.

لا أنكر رغم الشجاعة التي أتحدى بها أنّ كلامها أثرّ علي وعلى صديقتي كثيرًا وأثار خوفنا لمدة أسبوع، الى أن التقينا بالمستأجر السابق لشقتنا وأعلمنا أنّ (ناتي) ليست طبيعية بكلامها وتصرفاتها وأن لا نأخذ كلامها على محمل الجد.

سرتُ أصعد الى الدور الثالث وأنا أوكد لنفسي أنّ كلام (ناتي) هراء في هراء.. حتى أنني لم أعلم كيف فرضت نفسها علينا، لكن سرعان ما قلت ربما كان هذا نوعًا من طابع التعايش الذي تفرضه حيفا. عند الطابق الثالث انطفأت الأنوار التي تعمل بصورة مؤقتة عند إشعالها، وساد ظلام دامس.. نظرتُ الى رقم الشقة التي أقف بقربها فرأيت الرقم 20 ، وجزعت..

عادت (ناتي) لتتربع على ذاكرتي قالت أنها كانت عائدة من السوق وتحمل الكثير من الأغراض، صعدت الأدراج وسمعت صوت خطوات في الطابق السفلي.. أطفئت الأنوار فجأة وهي بقرب شقة عشرين فوضعت الأكياس على الأرض وقامت لتبحث عن زر الكهرباء حين سمعت صوت لهاث خلفها، تجمدت مكانها، ثم سمعت أصواتاً غريبة.. أسرع تضغط الزر وحين استدارت صرخت فزعة بأعلى صوتها.. قالت إنه عجوز روسي طويل جداً يعتمر قبعة سوداء طويلة غريبة الشكل.. ولها مقدمة تظلل عينيه، وقد استوصلت أوتاره الصوتية، فينم عنه صوتٌ مخيف.. أشعلت الأنوار وسارعت الى الدور الرابع وهو الأخير.. سرتُ فيه ركضاً نحو شقتي فقد كان هناك عطل كهربائي والمصابيح لا تعمل في هذا الطابق. سارعت بدخول شقتي وإغلاق بابها جيداً، ثم نظرت من العين الكاشفة الى شقة الرجل المخيف الذي يسكن طابقنا، لأراقب إن كان سيخرج. ولم يحدث هذا، فقلت لنفسي يا لي من مخبولة كيف أصدق واحدة مجنونة مثل (ناتي)؟!.. يجب أن أعود لأتصرف كما كنت قبل أن أسمع كلامها الفارغ.

نحو الحادية عشرة ليلا لست أدري ما الذي دفع صديقتي أن تترك أوراقها وتنهض لتنظر من العين الكاشفة.. ثم أتت الى غرفتي تقول لي:- تعالي انظري يوجد سلم أمام بابنا.

حملتُ بها: - ومن الذي سيصعد الى السطح الآن..؟

- لا أعلم

نهضت لأنظر من العين بعد أن أشعلت مصباحًا خارجيًا يتبع لشقتنا، فرأيت السلم منتصبًا أمام الباب. قلتُ لها: - سأفتح الباب». ولم أنتظر جوابها، فتحت الباب، ونظرت الى أعلى حيث توجد فتحة في السقف للصعود الى السطح وعادة تكون مغلقة، لكنني وجدتها مفتوحة المدخل، ما أثار استغرابي حذاء منزلي نسائي أمام السلم، حقيبة يد نسائية وكيس متوسط الحجم قرب السلم.. تساءلت ترى ماذا يمكن أن يكون هذا..؟

بدا الأمر غير طبيعي.. لكنني كنت قد قررت أنني أريد أن أحيأ بصورة طبيعية في هذه الشقة حتى تنتهي فترة عملي في هذا المكان، وقلت لنفسي لا يجب أن نحمل الأمر أكثر مما يجب، ولا داعي الآن للتحليلات والتحقيقات، أقفلت الباب وعدت الى غرفتي، ببرود أعصاب أثار صديقتي، خاصة عندما سمعنا صوت حركات وضحك على السطح وأنا بقيت مستمرة في مطالعة المقال الذي بين يدي دون أن يهتز لي جفن.. فنادتني من الصالة: - ألا تسمعين؟

- بلى..

- وكيف يمكنك التركيز؟

- دعينا من هذا، لا بدّ أنّه أحدُ يتناول المشروب على السطح..

- كلا أعتقد أنّه أحد يريد الانتحار..
- لا تعقدي المسألة، يبدو أنّ (بوارو) قد قرر زيارتك أنت هذه الليلة..
بقيت أقرأ فقالت:- يا لبرود أعصابك..
لكننا الاثنتين تجمدنا في مكاننا عندما سمعنا صوت ضربة قوية ثم صرخة «الله أكبر»..
قالت: «قلتُ لك» سارعتُ الى الباب لتهمس:- «هناك رجال شرطة أمام بيتنا»..
اقتربت ونظرت من العين الكاشفة فرأيت رجال أمن يصعدون الى السطح حاملين مصابيح كاشفة وجيراننا في الخارج، حاول شاب الصعود لكن رجال الأمن منعه، وسمعنا صوت كلام كثير بالعربية وبالعبرية، استجمعنا قوتنا وفتحنا الباب سألنا جازًا عربيًا:- ماذا هناك؟ فقال لنا:- إنّها امرأة تحاول الانتحار..
ظهرت (ناتي) من باب شقتها المحاذي لشقتنا فابتسمت لنا وقالت:- رأيتم أخبرتكن أنّ هذه البناية غريبة ثم أخبرتنا أنها دخلت لتستحم فرأت قدمًا تتدلى خارج نافذة الحمام، نظرنا إليها مشدوهتين.. سألتها: «وماذا ألم بك؟» ابتسمت وعرضت أن نذهب لنرى.. كان آخر ما يمكن أن أتخيله أن أجد نفسي في موقف مثل هذا الذي وجدت (ناتي) نفسها فيه.. رغم أنني سكنت ذات مرة شقة قديمة جدًا خارج نافذة حمامها حبل يتدلى، وكان مثارة

لخوفي لأنني كلما نظرت اليه تخيلت جثة تتدلى منه، وها جارتي ترى أقدامًا تتدلى. وجدتني أسارع خلف (ناتي) وأطل برأسي من النافذة لأرى رجلي المرأة تتدليان فوقني ثم حانت مني نظرة نحو الشارع، فوجدت جمهورًا كبيرًا وسيارات اسعاف وشرطة، كل هذا وأنا جالسة في غرفتي أحاول أن أقنع نفسي أنّ كل شيء عادي وطبيعي.

وبينما كنا الثلاثة نتناوب على الاطلالة من الشباك ونعبر عما حصل، كانت المفاوضات تجري على السطح لإقناع المرأة بالعدول عن رأيها فكانت تبتعد حينًا عن الحافة، ثم تقترب لتجلس مرّة أخرى وتهدد. علمنا أنّها مريضة في قسم الأمراض النفسية وقد هربت من المستشفى القريب، وأتت الى بنايتنا لتنتحر. انتظرنا حتى سار الملل في أوصالنا فسرنا وصديقتي الى شقتنا، نظرْتُ الى شقة الرجل المخيف فوجدتُ بابها مقفلاً.. من يدري قد يكون حزينًا لأنّه ليس بطل هذه الليلة، دخلت البيت لأجد هاتفني يرن وكانت صديقة لي، وعندما أخبرتها بما يحصل، أشارت الى أنّنا يجب أن نقوم بواجبنا المهني ونقنع المريضة بالعدول عن رأيها. أغلقت الهاتف وتساءلت ماذا يمكنني أن أفعل.. فتحتُ القرآن لأبحث عن سورة ياسين، وبينما رحت أخط بعض الآيات التي رأيت أنّها قد تساعد في اقناع المريضة جاءت صديقتي تناديني.

وقفت المرأة عند المدخل تنظر الى أسفل نحو السلم وتطلب

من الشرطي أن يمسكه جيدًا، راحت تنزل ببطء حتى وصلت، انتعلت نعلها وهي تنتقل ببصرها بيننا وتشعر بفرح كبير، رفعت الحقيبة.. وهي تقول لنفسها ها هم جميعًا ينتظرونني.. ويريدون رضاي..

تسير قرب الشرطي وتشير الى جارنا العربي وتقول أمرة: «اعملي قهوة» فأجاب ايجابًا. وسارت تتمختر والوجه كلها تطل من الطوابق، لاحظت حركة غريبة اتجه نظري نحوها فكان باب شقة «الرجل المرعب» حسب تعبير (ناتي)، احتبست أنفاسي قبل أن يطل.. وعندما ظهر.. اكتشفت أنه ليس مرعبًا.. فجأة بدا الجميع عاديين، والمرأة تنتقل في العمارة من طابق الى آخر ورجال الشرطة يعاملونها بلطف وبحذر وإن شاكست وتوقفت عن المشي.. تبتسم ويدخلها فرح شديد، الجميع يريد رضاها حتى شرطة اسرائيل.. حتى شرطة اسرائيل.

آيار 2012

أمل

متشحةً بالسَّوادِ يختلط لونُها بعتمة الغرفة.. تداعبُ شعَرَ صغيرِتها أمل التي بالكاد تغفو، لتقفز مرتعدة مع تجدد أصوات الانفجارات.. تستغربُ لحظات هدوء تمرّ.. تتساءل أي عاصفة ستأتي بعده.. وتحاول جاهدة، لكنّها تفشلُ في كبح رغبتها في البكاء..

ليلة أمس في مثل هذا الوقت بالذات، كان هنا بقربها يهدئ من روعها ويطمئنّها أنّهما سيخرجان وطفلتهم من هذه الحرب بسلام.. ولا بدّ أن يمنحهما القدر المزيد من الوقت لكي يكونا معاً..

لكنّ.. وفيما يبدو.. أنّه أخطأ هذه المرة..

تهزها أمل التي استيقظت للتو.. سائلة: "ماما.. سامعة أصوات الزمامير برا؟".

تصغي بوجوم "ماذا جرى؟" فمن لحظة استشهاد

زوجها لم تعد تتابعُ التقاريرَ الإخبارية أو تستفسر عنها،
أو تهتم بسماعها.. لقد سئمت كل شيء.. إنها ببساطة
تنتظرُ الموت..

يُقرع باب الغرفة، يظهر شقيقُها ويطلبُ منها أن ترافقه
الى مدخلِ المنزل..

هناك حينَ نظرت في عيونهم أدركتُ أنَّ طيفَ الموت قد
باعَدَ قليلاً.. يقفون وبريقٌ يلوح في عيونهم، يهمسون
بأسى طالبين الرحمة لزوجها..

"انتصرنا" يقول أحدهم.. "خليناهم يتنازلوا" يقول آخر..
تتابع العيون وتلمح البريقُ أكثر.. يداخلها شعورٌ غريبٌ،
مزيج من الحزن والفرح.. ترفعُ يدها نحو فمها وتطلقُ
صرخة مدوية من أعماقها، اختارت أن ترنمها لتصير
مثلما يقولون "زغرودة"...

تهزها الصغيرة المتعلقة بثوبها.. "ماما.. إيش فيه..؟"

- "خلصت الحرب"

- "يعني راح يرجع بابا.."

- "لا يا حبيبتي.."

- "طيب ليش بتزغردى؟"

تأخذها الى زمن بعيد الى ما يقارب العشرين عاماً.. يومَ
وجهت لأمها السؤال ذاته في موقفٍ مشابه، لتجيبها "لما
بتكبرى راح تفهمي"

وها هي الآن فقط تجيد الفهم..

تشرين الثاني 2012

شتاء آخر دونك...

عندما رأيتُ كل تلك العيون التي في الداخل تنتظر نحوي،
وتستحثني على التقدم.. وجدتني فجأة أتجمد مكاني..
أتمعن في الوجوه.. تلك التي قبالي وتلك التي تطلّ من
زجاج النوافذ وأبحث عنك.. أنتظر أن تتقدم من بينها
لتمدّ لي يدك وتساعدني على الصعود الى الحافلة.. يزداد
هطول المطر ويبقى انتظاري على حاله، فيغضب السائق
المندهش، لأشير له أن يمضي.. لن أعتلي الحافلة ما دمت لا
تنتظرني هناك..

سأمضي سيراً على الأقدام.. مثلما تعرفني بلا مظلة.. قد
تتساءل لماذا؟ رغم أنّك تدرك الإجابة.. لم أحتج يوماً تحت
هذا المطر سوى معطفك وذراعك تحيطني لتعزلني عن كل
ما هو غيرك..

شتاءٌ آخر دونك...

لم أكن أبتغي أكثر من الإندساس في معطفك، وركن رأسي
عند حدود صدرك لأنسى لسعات البرد، ويصير المطر أجمل
عازفٍ في التاريخ.. وليكون البلى أجمل ما يمكن أن يحدث
لنا معاً.. لكن ها أنت تذهب، وها هو المطر يعود وأبقى
وحيدةً دونك ودون معطف..

بعد كم مطرٍ ستأتي..؟

سأبقى مع المطر دونك إذا.. أحبه لأنه يخفي انكساراتي
الداخلية.. لن يميز أحدٌ دمعي حين يختلط بدموع
السّماء.. ولن يلحظ أحدٌ أنيني حين يهز الرعد الأرض
بصرخة مجلجلة.. أتعلم أي كم من الصراخ ينحصر في
جسدي.. وأحاول كتمانها منذ رحلت..؟

تبدو المدينة غريبة دونك.. لا تواسيني مظلات المحلات..
ولا الأشجار.. ولا وميض المصابيح المتناثرة.. تصبح الأشياء
دون معنى في بُعدك.. وأشعر أنني شظايا روح تتخفى
بقالب جسد.. وأحياناً أعود للتحديق في جسدي والتساؤل
أهو متكامل أم مجرد شظايا شاء لها أن تجتمع.. وتنتظر
زخمًا قويًا لتنفجر وتعود الى طبيعتها السابقة؟!..

أجدني أمام مقهانا القديم.. وأراه هنا.. لأول مرة يكون
هنا.. فقررتُ أن أدخل..

استغرب النادل كثيرًا حين رأيته.. دعاني حالا الى طاولتنا
المفضلة، وسارع يحضر لي مدفأة.. تساءلت هل يعلم بما

حصل.. هل يرى انكساري الداخلي..؟ لماذا هو واثق على أنني لم آت لألقى أحداً غيرك..؟
يأتي بفنجان قهوة وحيد.. ولا يسألني إن كنت أنتظر أحداً..؟ يغادرني بصمت ويتركني أحرق في فراغ وجودك من خلف ضباب قهوتي.. ولا أكف عن التساؤل؟
لماذا فعلت بي هذا؟ لما تركتني أحبك بهذا الجنون؟ أنا التي قلت لك أكثر من مئة مرة «افعل ما شئت سوى الرحيل عني..».

أردت ببساطة أن أعيش حياة طبيعية وعادية.. لم أرد أي ملامح من الغموض.. ولا أي ملامح بطولية أو ملائكية.. أردتك أن تكون بقربي.. أردتك أن تكون لي.. لكنك فضلته علي.. وصرت له.. وتركتني..

تسقط دمعاً من سحاب عيني لمتزج بسواد القهوة.. أسارع بمسح بقاياها.. أنظر حولي لأرى إن كانت أي من العيون تتبعني.. فانتبهت إليه مرة أخرى.. أشعر أنه ينظر نحوي ويشعر برغبة التشظي في داخلي.. يدرك عذاب روحي.. وأدرك أنه حان موعد الانفجار..

هنا فقط يصبح الانفجار ممكناً.. لا أحد يحاول للمة شظاياك أو إيقاف دويك.. لن يستطيع أحد أن يقيّدك أو أن يحكم على كلماتك الداخلية بالصمت، حتى وإن سمع صداها.. وأعتى أجهزة الاستخبارات لن تتمكن من ضبطك

شتاء آخر دونك...

متلبسًا واصطحابك الى أقرب معتقل.. سأقترُب منه..
هنا فقط ما بين الأوتار والألحان أتركُ لانفجاراتي أن
تدوي كما تشاء.. أتركُ لزلازلي الداخلية أن تخرج الى
الأرض .. ولروحي أن ترفرف الى السماء.. هكذا حين ترتفعُ
ألحاني وتهبط، ويترنح جسدي في مراقبتها.. أشعر أنني
أمتلك المزيدَ من الطاقة لأحتملَ غيابك..
أعزف ويعزف المطرُ على وجه الطريق، وفي لحظة استثنائية
وغير مبرمجة قررنا أن نتوقف معًا..
شعرتُ لحظتها أنني بعيدة جدًا عن كل ما يحيطني.. لم
أنظر تجاه أي من عيونِ رواد المقهى المتجهة بقوةٍ نحوي..
جاءني صوتُ تصفيقهم كصدى بعيد.. وهمسٍ أحدهم
يقول: « كم هي رائعة.. إنها خطيبة الأسير.. محكوم
بمؤبدين... ».

تشرين الثاني 2012

سؤال

تنظر اليهم من بعيد وهم يجرون خلفها.. نسائم خفيفة
تتلاعب بصفائرها.. تتساءل بقلق تُرى هل سيتمكنون من
اللاحاق بها..؟

لكن أين هو..؟ لماذا لم يظهر حتى اللحظة؟ هل يمكن
أن يفعلها ويبقى غائبًا حتى في هذه اللحظات العصيبة؟
ألن يأتي لينقذها؟

لقد تعرض لمثل هذا الموقف قبل عام ونصف وراحت
تجري هي معهم خلف سريره.. لكن أولئك أصحاب الأردية
البيضاء قد أدخلوه الى غرفة وأوصدوا الباب خلفهم..

وصلت الغرفة.. طُلب منها أن تهدأ وترتاح قليلا.. ليقربوا
بعد دقائق ويحيطوا بالسريـر.. تحاول أيديهم أن تمتد الى
فمها.. تقاوم.. تشعر بألم شديد.. وتقاوم.. تقترب امرأة

بدينة تضغط بشيء ما على فمها.. فتنهّار قوتها المقاومة وتغمض عينيها..

سواءً.. شيء من اللا شيء.. لحظات لا تظهر معالمها.. ولا تفهم شيئاً منها..

إلا حين تشعر ببعض النور يظهر.. تحاول بحذر شديد أن تفتح عينيها لتطلّ على المشهد.. تسمع الصوت الرتيب للآلات ذاتها.. تنظر حولها في الغرفة الفسيحة. ترى امرأتين برداء أبيض مشغولتين بتنظيم الغرفة..

تشغل انتباهها شاشات أجهزة لم تسمح لها سنواتها الثماني من العمر أن تعلم أكثر من أنها تعبّ عن عمل القلب.. إذ كثيراً ما شاهدتها في المسلسلات.. وعندما يمرّ الخط الأخضر متواصلاً دون تعرجات عادة ما يشير الى موت الشخص.. راحت تتابع الآلة بقلق.. وإن حدث ومّر الخط متواصلاً تغمض عينيها وتتساءل هل يعني أنها ستموت.. وتنتظر.. لتتذكره فجأة..

عادت تنظر في أنحاء الغرفة.. إنّه ليس هنا.. نظرت الى الباب الموصل.. هل يمكن أن يكون هناك في الخارج ينتظر؟..

تنظر الى موضع ألمها.. تتساءل هل سيكون الآن كل شيء على ما يرام؟..

تعاود النظر الى الآلات حولها.. لماذا تخشى أن يتحول الخط

الأخضر الى الاستقامة..؟ لماذا تشعر بهذا الخوف وتحت قلبها على العمل.. هل تخشى الموت؟ لكن ماذا يعني هذا؟ يدخل رجل برداء أبيض ويسألها إن كانت على ما يرام.. أجابت بالإيجاب. بدأ السرير بالتحرك، تشعر برغبة شديدة بالصراخ.. رغبة في أن تناديه.. ربما هو خلف الباب.. يفتح الباب..

تظهر أمها هناك وعيونها حمرة لكثرة البكاء.. وشقيقها الصغيران.. لكنه هو ليس هنا..؟

تسارع أمها الى السرير لتقبلها وتحمد الله.. وهي ما تزال تبحث بذهول، وتشعر برغبة شديدة في السؤال.. أين هو أبي؟ حتى اليوم لم يرحم شوقي إليه ويأتي..؟ تعلم أنها ستسمع ذات الجواب.. ستخبرها أمها مرة أخرى أن أباه قد مات..

ومرة أخرى لن تفهم..
فقررت أن تصمت..

2012\11\9

أحلام صغيرة.. دروبٌ ضيقة

مهداة الى الطفل عمران كستيو - القدس

تهبُ نسمةٌ تحركُ القماشَ المسدلَّ على مدخلها.. وينظر
من فراشه عبرَ منفذ ضيق أحدثته عبثية تلك النسمة.. الى
بقايا ما كان له هناك.. ويتذكر حديث جدِّه عن الخيمة
في المخيم قبل خمسة وستين عامًا.. وكلما تذكر قال: «الله
يقطع هذيك الأيام».
ويحاول جاهدًا أن يغفو.. لكن..

* * *

يُقرع الجرسُ.. يسيرُ نحو الصفِّ بخطواتٍ وثيدة.. يحاولُ
صديقُه أن يدفعَه للتقدم، فهو الوحيدُ بين الجميع يعلمُ
سبب الشحوب الذي يظهرُ على وجهِ صلاح..
تدخل المعلمةُ الى الصفِّ، تطلبُ من الطلابِ فتحَ الدفاترِ
والكتبِ.. يستجيب الجميعُ باستثنائه هو، الحقيبةُ مغلقةٌ،

النافذة بقربه مفتوحة.. يتركها مشرعةً لأصواتٍ ستأتيه من بعيد، رافضاً الاستجابة لطلب زملائه بإغلاقها لترد عنهم برودة شباط.

تسأله المعلمة عن كتابه.. يقول لها أنه نسيه في البيت، فتطلب منه أن يشاطر زميله القراءة في الكتاب. يُغلقُ أحد الطلاب النافذة تلبيةً لطلب المعلمة.. فيما يحاول هو أن يستجمع ذاكرته.. حول أشياءه الصغيرة.. أوراق ودمى كثيرة تركها هناك.. في كيس قرب باب الغرفة، وأبقى على أخرى في مكانها.. لأجل أملٍ في صدره يأبى أن يخبو. اليوم سيعودُ الى البيت ليتناول طعام الغداء مع أمه وأبيه وأخوته.. حول المائدة نفسها، وربما ستوقد أمه مدفأة الحطب، وستشوي لهم الليلة الكستناء.. وسيلعبون ويسهرون معاً مثل كل ليلة..

يشعرُ فجأةً بصديقه يلکزه لينتبه الى المعلمة.. التي راحت تصرخ به سائلة: «أين وصلنا في القراءة يا صلاح..؟» بقي الطفل ذو الشعر الأشقر واجماً دون جواب. تعود المعلمة للسؤال: «عم كنت أشرح الآن يا صلاح؟» ينتبه الى اصبع زميله يشير له الى جملة في الكتاب، فشرع بالقراءة على مضض حتى أذنت له المعلمة بالتوقف.

لكنّ نظر صلاح عاد ليبتعد عن الكتاب ويتجه نحو النافذة، بل تجرأ ووقف لفتحها.. وهنا سمع الصوت

الغريب.. إنَّه منخفضٌ.. لكنَّه يسمعه.. لقد جاؤوا.
لم تتمكن المعلمة من فعل شيء، أو حتى رده حين أطاح
بكرسيه وركض مسرعًا نحو الباب، خارجًا دون إذن.
ليحتل الصمت أجواء الصف الضيق عندما وقف صديقه
رشيد وأخبرها سبب شروء صلاح. طلبت المعلمة من
الأطفال أن يخرجوا دفاتر الرسم من حقائبهم، ويرسموا
أحلامهم.. فيما جلست شاردة الذهن قرب النافذة تتقصى
مصدر الأصوات القادمة.

بدا المشهدُ كضربٍ من الهذيان.. المطر يسقط والجدران
تسقط.. ومعها يدركُ أنَّ أحلامه لهذا اليوم لن تكون.. لن
يتناول الطعام وعائلته حول مائدتهم.. لن يعود الى فراشه
مرة أخرى.. ولن تفوح في المساء الدافئ رائحة الكستناء.
الكيس الذي جمع فيه أغراضه يقفُ تائهاً بين أشياء
أخرى تمكن والداه وأعمامه من انقاذها قبل أن يستحيل
البيتُ ركامًا.. تعاودُ الجرافة لتتجه الى القسم الأخير من
المنزل والذي يشمل غرفته.. يسارع ليصرخ باكيًا.. «لا...».
يبكي الجميع من حوله.. ويسقط الجدارُ الأخير.

تعاود الدموع لتتسلل من عينيه.. في هذه الليلة الباردة
من آذار.. يحدق في الجدران البيضاء للخيمة، التي صارت
خيارهم بعد أن تفرقت العائلة لأسابيع عند الأقارب.. كان
لا بدّ من عودة.. الى ركام البيت.. ونصب خيمة قدّمها

الهلal الأحمر.

يحاول جاهداً أن يغفو.. يرى جده يقترب ليجلس قرب فراشه.. يسأله عن الخيمة..؟ فيشرع محدثاً إياه عما حصل.. كيف صار بيتهم مخيماً.. وكيف ضاعت أشياءه؟
وقبل أن يختفي وجه جده استوقفه قائلاً:
« الله يقطع هاي الأيام يا سيدي».

2013\2\6

أشياء لم يجمدها الصقيع بعد..

يدوي صوتُ الصافرة.. يتوقف القطار.. ويسارع جميع
من حولها بالنزول تحت المقاعد، باستثناءها هي، تبقى
في مقعدها، تغمض عينيها.. وتنتظر، لحظاتٍ قصيرة
ويسقط ..

"ليته يسقط هنا.. ويكون الانفجار..

واحد.. اثنان.. ثلاثة..

لينته كل شيء.."

* * *

لم تسقط ثلوجُ موسكو بعد.. لكنه صقيعٌ من نوعٍ آخر
جاء على كل شيء.. لتصيرَ أحلامُها فجأةً واقفةً في الطريق
بالكاد ترى من أين ستمضي..؟ تحلق من مطار الى آخر..
تظن أنها قد وصلت لكنها تكتشف دومًا أنَّ شيئًا منها

بقي في الطائرة المحلقة بعيدًا.
تجرُّ الحقيبة.. وتُدرك استغراب الحارس وهو ينظر نحو
عينيها الحمراوين.. يتساءل «ما الذي يدفع هذه الشقراء
الجميلة الى كلِّ هذا الحزن؟» لكنَّ هذا لم يمنعها من إدارة
ظهرها، وعدم تلبية دعوته لها للبقاء في داخل قاعات
المطار، دون الخروج الى الرياح الباردة التي جاءت بها
أواسط نوفمبر.

تسير بين محطات القطار، تبحث عن عنوان يعيدها الى
مسقط رأسها.. وهي تدرك أنَّها ليست المحطة التي كانت
تنشدها.

تجلسُ متهالكة على المقعد.. عشرُ دقائق ويصل القطار..
تمرُّ بعدها ساعة ونيف من الزمن وستبدأ بمعايشة
كابوسٍ جديد..

الرياح باردة لكنَّها لا توازي برودة رياح موسكو.. ولا
تستطيع أن تخفف من وطأة النيران التي تشتعل في
صدرها..

" أحيانًا لا تترك لنا الحياة المساحة لنسير في الدرب الذي
نريد.." جاءتْها الكلمات باللغة الانجليزية مفاجئة، أفاقت
من شرودها لتتنظر الى مصدر الصوت.. فرأت راهبة بيضاء
البشرة في الأربعينيات من عمرها تجلس بقربها تنظر نحو
سكة الحديد.. وتستطرد: « أحيانًا نسيرُ في دربٍ ونظن أنَّه

أشياء لم يجمدها الصقيع بعد..

الطريق الى الحلم.. وفجأة يقفر دون سابق انذار..»
ثم تعاود النظر إليها مبتسمة: «لكنّ هذا لا يعني أنّه لم
تعد للحلم دروباً أخرى نحو الحياة..»
يتوقف قطار عند المحطة.. تنهض الراهبة تقول لها :
ليرعك الرب..» وتمضي لتدخل أحد الأبواب المشرعة، وتغيب
وسط الزحام..

تنطلق القاطرة لتقف أخرى بعد لحظات.. هذه هي
وجهتها التي ستأخذها بعيداً عن صخب المطارات.. تجرّ
حقيبتها الثقيلة التي حزمته قبل ثلاثة أيام فقط.. عندما
جاء بها هذا القطار الى هنا.

تمرّ دقيقة ويرتفع صوت الصافرة لتغادر مطار تل أبيب.
تتساءل.. تُرى ماذا ستفعل الآن؟ كيف ستبحث عن بداية
جديدة بعد أن ظنت أنّها ستبدأها قبل أيام قليلة.
كان كل شيء أجمل وأوضح.. ها هي الطرقات جميعها
تعود لتختلط.. تحاول استذكار ما حصل..
كيف راحت تنظر إليها من خلف النظارة لتقول ببساطة:
«لا يمكنك البقاء هنا أكثر من ثلاثة شهور..»
ظنّت للحظة أنّها أخطأت السمع.. لتتساءل: «ماذا..
تقصدين؟»

تعود الروسية الشقراء الى الخلف لتسند ظهرها وتعُدّل
النظارة على عينيها قائلة بالروسية: «هذه الفيزا التي

بحوزتك، غير مناسبة لوجودك هنا كطالبة.. بل كسائحة..»
في تلك اللحظة شعرت أنّها تسقط في هاوية عميقة من
الأسئلة.. تساءلت من عمق هاويتها: «ماذا أفعل؟»
جاءتها الإجابة من بعيد.. «عودي لبلدك جديدي الفيزا،
وعليك العودة الى موسكو خلال أسبوع..»
تقهقه الطفلة الحاملة في صدرها وما تلبث أن تنفجر
بالبكاء.. هل تدرك هذه الشابة كم عملت وعمل والداها
لتدّخر سعر التذكرة وتكاليف السفر الى هنا..؟ ظنت
نفسها كسبت تذكرة تأخذها الى درب الحلم.. وها هي
التذكرة تتبلل وتنقطع الجسور..
أيمكن أن يكون كل هذا حقيقة..؟ تعاود لتسأل: «ألا يوجد
حل آخر؟»

تأتيها الاجابة من بعيد: «كلا.. أنا آسفة»..
تحقق في وجه الشابة ولا تراها.. تدرك أنّ بقاءها جالسة
على المقعد عبثي.. ويتحتم عليها مغادرة المكتب لتفكر
بهدوء..

تخرج من الجامعة لتسير الى محطة الحافلة.. قاصدة
منزل صديقتها علّها تعينها على حل..
تتخذ مقعداً، وتتأمل الطرقات في مرورها.. هنا كانت قبل
أشهر قليلة لتستكمل دراستها للغة الروسية.. بعد أن
ابتدأتها في البلاد.. جاءت لتخطو خطواتها الأولى.. وعادت

أشياء لم يجمدها الصقيع بعد..

الآن لتقول لموسكو أنها ستصير مدينتها، وهي مستعدة
لقصة حب جديدة مع مدينة جديدة..
لكن.. يبدو أن موسكو لم تقاسمها مشاعر الحب.. وإلا
كيف تدعها ترحل؟ هكذا ببساطة..
تنساب دمعة من عينيها..

وفجأة تستفيق من شرودها، على صوت الصافرة.. يتوقف
القطار.. وتتندب بحزن.. ناطقة باسم «غزة»
تحاول أن تتابع تأملاتها وحزنها.. لكنها تنشغل بمتابعة
الركاب من حولها الذين قفزوا حالا ليبحثوا عن منجى
تحت المقاعد والطاولة الصغيرة الممتدة بين كل أربعة
مقاعد متقابلة في القاطرة..

تقول لنفسها: «يا لهم من جبناء».. ثم تغمض عينيها
لتسترسل: «قد جاء الصاروخ من هناك من غزة في الوقت
المناسب.. ستكون رصاصة الرحمة.. ليسقط هنا في هذه
المساحة بالذات.. ولتلتهب جميع الطرقات.. ولينته كل
شيء..» وتبدأ بالعد..

فجأة تهزُّ يد ساقها، تفتح عينيها لتنظر.. فترى امرأة
في الخمسينيات من عمرها تجلس تحت الطاولة.. تسألها
بخوف بالعبرية: «هل يظهر شيء من النافذة؟» تجيبها
بالنفي..

يسألها شاب بالعبرية من الجهة المقابلة، وقد كان الوحيد

غيرها ما يزال فوق مقعده دون أن يحاول الاحتماء تحت
المقعد: «لماذا لا تختبئين ألا تشعرين بالخوف؟»
تجيبه بالعبرية: «نحن العرب لا نخاف، ولا يهمني أن أموت
الآن.. بل اني أتمنى ذلك»
إذ بملامح وجهه تختلف، ليتحدث بالعربية: «أنتِ عربية؟
أهلا بك يا أختي.. لكن لماذا كل هذا الحزن؟»
- «قصة طويلة..»

تطلّ بعض الرؤوس من تحت المقاعد لتستطلع الحال..
فيما تختفي أخرى.. ويعلو صوت الهمهمات والأدعية..
وينهض هو لينظر عبر نافذة زجاج الى القاطرة المقابلة،
وسرعان ما يشير لها بأن تنهض لتقترب.
قامت لتتجه اليه، وهناك حاولا جاهدين أن يكتما ضحكهما..
ففيما يختفي الجميع خائفين تحت المقاعد، يتمدد شاب
عربي يصور المشهد عبر كاميرة الهاتف مبتسمًا. وحالما
وقع نظره عليهما رفع إبهامه محيياً مشيراً علامة النصر.
ابتسما وبادلاه التحية، همس الشاب بقربها «يا لهم من
جبناء!..»

قالت وهي تتجه نحو مقعدها: «ربما.. لكن ألا تنكر أن
شجاعتنا تتسم أحياناً بالغباء وسوء التقدير..؟!»
- «ماذا تقصدين؟»

- «ألا تذكر في حرب لبنان عام 2006، قد مات الكثير من

أشياء لم يجمدها الصقيع بعد..

شعبنا.. لأننا حين تطلق الصافرات وتنطلق الصواريخ...
فيما يسارعون هم الى الملاجئ، ويتخذون حيطتهم، نحن
لا نكتفي بعدم وجود ملاجئ مناسبة لنا، بل نسارع الى
السطوح والشرفات.. لنرقب موقع سقوط الصواريخ.. ماذا
تسمي هذا..؟»

توقفت الصافرة، وراح الجميع يعود الى مقاعدهم، وبقي
هو بقربها ليقول: «أسميه حالة قسرية من الجنون.. هل
تعتقدين أنه يوجد شعبٌ غيرنا يفرح حين تسقط على
بلايه القذائف..؟»

تتنهد قائلة وتعود بنظرها نحو النافذة: «كلا أشك بذلك..»
تكبر الحرقة في داخلها.. حين تذكر كلماته الأخيرة قبل
الرحيل.. فيما تعود الأسئلة والحوار الجديد لقطع سلسلة
أفكارها.. يسألها: «عفوا ما اسمك؟»

تجيب بتلقائية: «سيلين». تسأله من باب الواجب عن
اسمه فيجيب «نزار».

تعود لتخاطب نفسها وتدقق النظر في الأماكن العابرة من
النافذة «انا هنا إذًا..»

قالوا لها الليلة سنسهر حتى الصباح.. الأصدقاء
والصديقات من دول في العالم العربي قريبون جدًا.. فجأة
لم تعد تونس غريبة خفية خلف البحار.. وسوريا صارت
أقرب، يمكن رؤيتها بيوميات من عايشوها.. ولم تعد

هناك غمامة من الغرابة والمجهول عند النظر الى العراق.. وفلسطين كذلك بدت أقرب.. هنا مؤيد من غزة، الذي هو أكبر المجموعة سنًا إذ جاء منذ تسعة أعوام.. وها هو يكاد يحصل على اللقب الثالث في الكيمياء..

التقته صدفة في مقهى في الجامعة.. وحين علم أنها من الجليل سأل بلهفة عن سبب قدومها للدراسة في موسكو.. راحت تعدد الأسباب، لكن حين ذكرت أحدها وهي عدم احتمالها سماع اللغة العبرية والتفرقة الموجودة تجاه العرب في الداخل، استغربت موقفه اذ قال «إذا يجب عليك العودة لتواجهي كل هذا.. وتبقي هناك». ضايقها كلامه، ليضيف بعد لحظة: «وإن لم تفعلي وبقيت هنا بعد الدراسة فستساهمين بتحقيق مأربهم».

في تلك السهرة الأخيرة لها معهم فارقتها الجميع بدمعة وحزن باستثناءه هو، ابتسم وقال لها «ستعودين بأسرع مما توقعت..» حاولت الابتسام فقال: «ابدئي هناك طريقك فهذا أفضل.. وإن شاء الله سنلتقي ذات يوم وتخبريني ماذا حملت لك العودة».

تنظر الى البحر في الجهة اليسرى، تسأل المدّ أن ينحسر برسم طريق ما على الرمل عند الجزر. لكنّ الهواء ليس طليقًا هنا.. ربما لن ترى اصدقاءها هناك مرة أخرى، لقد عادت الى القوقعة..

أشياء لم يجمدها الصقيع بعد..

تشعر باختناق.. وتسقط بضع دمعات من عينيها، ينتبه نزار لها.. يسارع بإخراج منديل ورقي ويقدمه لها. ليتساءل: «ماذا بك يا أختي؟»

«لقد قضيتُ عامين بعد انتهاء الدراسة الثانوية أعمل لأدّخر النقود لدراسة الطب، وسافرتُ الى روسيا لأدرس هناك، وانا سعيدة ظناً مني أنني أخيراً عرفتُ الدرب الذي سأسلكه.. لكن سقط كل شيء وضاعت الطريق في لحظة واحدة.. عندما تبين أن نوع الفيزا التي بحوزتي لا توافي شروط الإقامة هناك وعليّ العودة الى هنا لتجديدها.. ووضعني المادي لا يسمح بحجز تذكرة أخرى والعودة الى هناك خلال هذا الاسبوع».

تنهدت.. لتقول: «سيكلفني هذا الكثير.. ويبدو أن الطريق الثانية بالبقاء هنا هي الأنسب.. لكنني لا أعلم من أين سأبدأ..»

- "ألا يمكنك دراسة الطب هنا؟"

"لم أقبل حتى الان.."

"حاولي أن تدرسي موضوعاً طبياً آخر.. وركزي اهتمامك عليه.. في كل الاحوال انا أعمل ممرضاً وهاك رقم هاتفي.. يمكنك محادثتي متى شئتِ إن احتجت مساعدة او استشارة.."

ابتسمت شاكرة.. وصافحته قبل أن يترجل من القطار

في حيفا مودعاً اياها.. وفكرة داخلية عادت تلح عليها..
كيف يمكن أن تتدبر أمر السفر والعودة مرة أخرى الى
موسكو..؟

هناك في عكا عندما ترجلت من القاطرة ووقع نظرها على
أمها وشقيقها شعرت بجسدها ينهار.. تريد أن تلقي كلّ
حمولتها بين كتفيهما..

لتبكي في حضن أمها ضباب الطرقات.. وتتساءل هل
ستحتلم شقاء الفراق مرة أخرى..؟
همست أمها تخبرها أنّه وصلتها رسالة قبول لدراسة
علوم الأحياء في جامعة محلية.. هزّت رأسها ومشّت..



جلست تتابع النشرة الاخبارية قلما تفعل هذا.. لكنّ
أحوال الحرب على غزة تستدعي هذا.. ها قد مرت ستة
أيام على الحرب ويومان على عودتها.. ولم تستكن نيران
الحرب بعد.. وما زالت اسرائيل تحشد قواتها الاحتياطية
على حدود غزة لحملة برية.. والخوف ينتابها بشدّة جرّاء
هذا.. فهي ما تزال تذكر جيّدًا الحرب السابقة في عام
2009 وأي مجازر شهد القطاع.. حدّثها صديقها مؤيد
كثيرًا عن أوجاع القطاع.. مؤيد.. ذاك الشاب الغامض
الذي لم تفهمه يومًا.. بين مجموعة أصدقائها هناك وكم
رغبت أن تعرفه أكثر. هناك شيء من الصمت في شخصه

أشياء لم يجمدها الصقيع بعد..

يدفعها دومًا للسعي الى كشفه.. تتنهد وهي تتابع التقرير الاخباري وتشرذ بذهنها بعيدًا. وتعدُّ نفسها أنَّها ستنجح في هذا عند عودتها بعد يومين الى روسيا.. أجل ستعود لقد اتخذت قرارها.. ولم يملك والدها أمام إلحاحها سوى أن يتوجه قبل قليل الى المصرف لمحاولة طلب قرض مالي. تتساءل: «تري هل وافق المصرف على طلبه؟ خاصة أنَّ ديونه ازدادت في الفترة الأخيرة..؟» وفيما هي مستغرقة في التفكير انتبهت الى أنَّها تشاهد وجهًا مألوفًا على شاشة التلفاز. عاودت النظر مرة أخرى لتصرخ: «يا الهي».

إنَّه مؤيد.. قد عاد الى غزة.. لكن كيف تمكن من هذا؟ تصغي.. لتفهم أنَّه جاء مع الشبان العرب الذين قدموا في اليوم السابق تضامناً ودعمًا للغزيين.

يسأله الصحفي: «لماذا عدت يا د. مؤيد»
- «أتيت لأدعم بلدي وأقدم الافادة لأبناء شعبي... ولأنني شعرت في هذه الحرب كم تحتاجني غزة».

- «لكن ألا يكبلك هذا علميًا. ويفرض الحصار والوضع الأمني نفسه على تطوير أبحاثك...».

- «لا بدَّ أن تكون هناك الكثير من المعوقات.. لكنني أعلم أنَّ غزة تحتاجني لننتصر معًا على الحصار..».

تتابعه غير مصدقة كيف جاء بهذه السرعة.. وتعاودها ابتسامته وعبارته الأخيرة يوم ودعها.. عن لقاء يجمعهما

ذات يوم. هكذا اذًا لقد جاء ليتحدى حصاره..
استغرقت في التعمق باختناق داخلي يساورها منذ عادت
الى هنا.. لتجدَّ أنه أقل وطأة، فقامت مسارعة الى الهاتف،
وحين جاءها صوت والدها سارعت بقولها:
"أبي لا تطلب القرض.. لن أسافر..".

نيسان 2013

مع الريح وخلف العاصفة

كم تحب الجلوس عند الشاطئ القريب من بيتها عند العصر، ولداها يدرسان للامتحانات الثانوية، فقررت أن تصحب الصحيفة وتتجه لتقرأها هناك.. لكنّ صوت بكاء خافت سمعته عن مقربة، جعلها تبتعد قليلا عن مساحات السطور والورق لتنظر نحوها.. الى المرأة الخمسينية التي تجلس بقربها على ذات المقعد..

تبادرها متسائلة: «لماذا تبكين.. هل أستطيع المساعدة؟»
تحين نظرة من المرأة اليها ولا تجيب.. بادياً عليها عدم الفهم. عادت لتكرر السؤال باللغة العبرية.. وهنا تنهدت المرأة صاحبة الشعر العسلي لتقول بصوت متقطع: «لقد علمت اليوم أنّ لدي ورماً سرطانياً..»
ازداد اهتمامها وقامت بطي الجريدة لتسألها: «في أي عضو هو المرض؟»

«في الثدي»

«أهو في حالة متقدمة؟ ام ما يزال في بدايته..؟».

«في بدايته..»

«حسنًا خففي عن نفسك فقد تقدم العلاج كثيرًا.. وسيتم استئصاله وتحصلين على دواء يمنع عودته.. ستكونين بخير.. سمعتُ عن كثيرات يعدن الى حياتهن الطبيعية بعد العلاج.. فقط تحلي بمعنوياتٍ عالية..»

بدت المرأة مصغية وقد توقفت عن البكاء.. لاحظت تقدم جندي نحوهما من ناحية المرأة، مما دفع الأخرى لأن تنظر الى الجهة ذاتها.. وهنا عندما وقع نظرها عليه، تهلل وجهها.. وقامت مسارعة نحوه، لتضمه قائلة: «أخيرًا عدت يا بني..»

أمّا هي فعادت سريعًا الى أوراق الصحيفة ترفعها، لتخفي دمعًا راح ينساب على وجنتيها، وهي تقرأ عن احتفالات على أرض قرية كانت لها.. عزلوها وأهلها عنها قبل أكثر من ستين عامًا، بعدما استبدّ بالقرية ورم خبيث ولم يعثر له أحد على دواء..

سمعت المرأة تقول لها بصوت منخفض: «الى اللقاء».. فأجابته.. وحاذرت كلتاها النظر في عيني الأخرى.

آذار 2013

انسباب الذاكرة

كم كان على عجل للوصول الى هنا بالذات.. ولكن عندما وصل.. صارت خطواته تتباطأ.

يلحظُ بعض التغيرات القليلة كلما تقدم.. حتى وصل اليها، لتنبعث ذكرياتُ رقدت هنا في كل ركن منذ اثني عشر عامًا.

لكنّها تبدلت كثيرًا.. لم تعد الحديقةً مثلما كانت يومَ كان وأصدقائه يلعبون هنا. لقد انتشرت الأعشاب فيها، وطال امتدادها في كل مكان.. كأنّ جميعَ سكانِ البناية رحلوا.. وما عاد من أطفال يولدون ويبقون امتدادًا للحياة في هذه الحديقة، التي لا تزيد مساحتها عن خمسةٍ وعشرين مترًا مربعًا، لكنّها حملت الكثير من طفولةٍ قُدر لها أن ترحل عنها في سن العاشرة.

يتجه نظرُهُ بسرعةٍ نحو الجهة اليمنى، وكأنّه تذكّر فجأة

السبب الذي جاء من أجله.. يُسارع مارًا على الاعشاب.. هناك على ارتفاع متر عن الأرض في جدار يحيط البناية، قرب قضيب حديدي، كانت تتسلقه ذات يوم دالية عنب صغيرة، تقع تلك الكوة الصغيرة والتي كانت ذات يوم بريدًا يتبادلان فيها الرسائل.

تظهرُ بعضُ الأعشاب عند مدخلها.. لتتسارع نبضات قلبه، يمدّ يده دون أن يفكر بإمكانية وجود حشرات خطيرة هناك.. فهو يخشى أن لا يعثر على ضالته..

عندما لمس كيسًا بلاستيكيًا في الداخل شعر براحة.. أخرجه بسرعة، ليحرر تلك الرسالة التي انتظرت هنا أكثر من عقدٍ ليأتي إليها..

وبعد أن فتحها بحذر ليقراها، لم يحتمل أن يكبت الدموع التي احتقنها طيلة الطريق الى هنا. الآن يُدرك فقط كم جاء متأخرًا..

* * *

عشر دقائق وينتهي الدوام.. كم يصير الدوام مملاً قبل عطلة العيد.. خاصة في دقائقه الأخيرة.. وعلى الأخص عندما تُدرك أنّ أصدقاءك ينتظرونك منذ ساعتين، لتنطلقوا معًا في رحلة الى البحر

"عفوًا هل يمكنك مساعدتي..؟"

انتابته خيبة داخلية، خشية من أن تؤخره هذه الزبونة عن الخروج، لكن ما إن وقع نظره عليها.. حتى قال

لنفسه لا بأس في أن ينتظره أصدقاؤه قليلاً..
قدمت له أوراقاً وصلتها بالبريد ووضعت جهازها الخلوي
أمامه، لتحتج على عدم تلبية خدمات هاتفية، طلبتها من
الشركة..

فجأة وبدلاً من الاستمرار بذات اللهجة.. وفي الوقت الذي
كان جلّ انتباهه مُنصبّاً على جمال شفّتها وتناسقهما،
انتبه أنّ تلك الشفتين انطبقتا قليلاً لتنفرجا عن اسمه
بنبرة ملؤها الاستغراب.. «سامي..! أنت سامي الأسمر..؟»..
جاء اسمه ليوقظه، ويردّه قليلاً عن البحار في عينيها
العسليتين، ليهزّ رأسه إيجاباً..

عدل جلسته عندما رأى دهشتها في ازدياد وراح ينبش
ذاكرته.. تُرى من يمكن أن تكون هذه الصبيّة؟ كيف
يمكنه أن ينسى صاحبة وجهٍ كهذا..؟

أتته الإجابة سريعاً: «أنا ريم.. ابنة خال نيسو..»، تمعنت
في تغير ملامحه وانقلاب سحنة وجهه من البشاشة الى
التفكير العميق.. لتلقي بحجرٍ آخر تحرك فيه مياه ذاكرة
راكدة منذ اثني عشر عاماً حين قالت: «صديقك نسيم يا
سامي هل تذكره..؟»

ضرب على رأسه.. ليهزه مجيئاً بالإيجاب، محاولاً تذكر
وجه تلك الطفلة الجميلة التي تصغره بعامين، وكم كان
يفرح بلقائها كلما رافق صديقَه لزيارة أخيها، ليتجلى
وجهُ صديقَه نسيم وهو راكض دائماً نحو الموج منادياً

إيَّاه أن يتبعه. لكنَّ جرحًا قديمًا جعله يقول بحذر: «أجل بالطبع أذكره.. ما هي أخباره..؟».

- "لقد مات قبل أسبوعين.."

انتفض من مقعده وراح يحملقُ فيها.. كأنَّه يطلب منها أن تعيدَ الجملة، أو أن تغيّرَ قولها ليسأل بصعوبة: «ماذا؟»

- "أجل لقد توفي جرّاء مرضٍ أصابَ كبده منذ عامين.."

ارتد الى مقعده، مرّ بكفه على شعره كأنَّه يحاول أن ينزع هذه الحقيقة التي أسقطت عليه..

سألته: «لم تلتقيا منذ أن تركتَ المدينة أليس كذلك؟»

- "أجل"

وعاد لينغمس في ذاكرته.. «نيسو» أو نسيم صديق طفولته، زميله في الصف وابن جيرانهم، الذي لم يكن يفارقه في النهار سوى ساعتين أو ثلاث وقت الظهيرة، عندما يحين موعدُ الغداء وتحضير الدروس اليومية..

نسيم تغير فجأة في الشهر الأخير، حين قرر والدا سامي مغادرة عكا والسفر الى الولايات المتحدة بسبب عمل والده. فجأة صار يختفي نسيم في معظم فترات ما بعد الظهر، صار يذهب ليرافق ابن عمه، في جولاته على الحنطور في المدينة، دون أن يدعوّه. أو يرافق ابن خاله، شقيق ريم ليتعلم الصيد منه، دونّه. كما لم يعد يشاركه اللعب عندما يلتقي أولاد البناية للعب في حديقته.. تساءل كثيرًا عن السبب، وسأل نفسه عشرات المرات هل أخطأ بحق

نسيم دون أن ينتبه..؟

لكن عندما حان موعد السفر وكان نسيم على علم به.. ولم يظهر ليودعه كبر حزنه كثيراً.. صعد الى بيتهم الذي يقع فوق بيت سامي ليطرق الباب وينتظر أن يظهر نسيم.. لكنه لم يظهر.. فتحت أم نسيم الباب، لتخبره أن الأخير غادر المنزل، وقبلته مودعة إياه متمنية له حياة موفقة.

لم ينس يوماً ذاك الحزن الذي غمره أثناء نزوله الأدراج.. وهو يفكر بطريقةٍ تتيح له اللقاء بنسيم.. فكر أن يكتب له رسالة ويتركها في كوة صغيرة في جدار الحديقة، وكانا عادة يتبادلان عن طريقها الرسائل ليرسّخا علاقتهما ببعض، إن مرّ يوم ولم يلتقيا..

لكن عندما وصل الدرج الأخير لاقته نظرات أمّه المتسائلة.. احتدم الغضب في داخله وقرر ألا يسأل عنه بعد اليوم، وتقدم نحو السيارة مستعداً للسفر.

أيقظته ريم من شروده حين قالت: «لقد حدثني عنك قبل شهرين..»

نظر إليها مستغرباً، منتظراً أن تتابع، فاستطردت: «بدأ يحدثني فجأة عن أيام الطفولة وعنك، تحدث عن صداقتكما القوية، وقرار عائلتك بالرحيل عن المدينة، قال إنه بسذاجة غَضِبَ عليك وشعر أنك استسلمت لقرار والديك وخنت صداقتكما عندما وافقت على السفر، دون معارضة. وقرر أن يخفف من تعلقه بك بسبب خشيته

من فقدكِ، إذ كانت نفسيته لا تزال غير مستقرة بعد فقدان والده قبل ذاك بثلاثة أعوام..»

سأل بصوتٍ متقطع.. «حقاً!! أكان هذا هو السبب..؟»
- «لقد أخبرني أنه ترك لك رسالة في مخبأ في حديقة البناية.. ولم يكن متأكداً إن قرأتها.. لأنه وجدها مكانها حين تفقدها بعد سفرك فلم يعلم أقرأتها ومنعك غضبك من كتابة رد.. أم لم ترها..؟ لكنه بقي على أمل أن تعود وتقرأها ذات يوم..»

بقي يحدق اليها غير مصدقٍ ما آل اليه حال يومه، وحين وقف زميله في العمل متسائلاً هل هناك مشكلة ما في المعاملة..؟ مشيراً الى أنه قد مضى عشر دقائق على موعد اغلاق الشركة، انتبه للساعة، وتذكر أصدقاءه الذين ينتظرونه لمرافقتهم الى البحر.. فجأة صاروا بعيدين جداً.. عاد الى نسيم الذي كان يفوقه في الطول، شعره أجعد، ولونه أقرب الى السمرة.. وهذا ما يميز معظم سكان المدينة.. قدره واحترمه الجميع خاصة لما أبدى من قوة صبر بعد وفاة والده، وهو في السابعة من عمره.. كيف سمح لنفسه أن يغيب عنه مرتين ولا يترك له أي مجال للقاءه؟. تنهد قائلاً: «يا الله..»
سألته: «لماذا لم تزر عكا؟ هل عدتم منذ زمن من الولايات المتحدة؟»

- «لقد عدنا منذ سبع سنوات وكنت مشرفاً على دراسة المرحلة الثانوية، الأمر الذي سبب لي بعض البلبلة بسبب

تغير المناهج والأجواء، لكنّ والديّ لم يتأقلموا مع طبيعة الحياة هناك وقرروا العودة.. فعدنا الى الناصرة حيث تتواجد معظم العائلة.. والآن بعد دراستي الجامعية أعمل مؤقتاً هنا في شركة الهواتف النقالة.. ولم أزر عكا إلا مرتين أو ثلاثاً منذ عدنا، وأتقصد عدم مرورنا في الحيّ.. لأنني أشعر دائماً بنوع من الحزن كلما فكرت بالذهاب هناك.. وماذا عنك ماذا تفعلين هنا؟»

- «لقد تزوجت منذ بضعة أشهر شاباً من سكان هذه المدينة..»

بارك لها.. وعاد لينظر في أوراقها عاملاً على تلبية حاجتها من الشركة.

بعد أن غادرت، وتمكن من مغادرة مكتبه.. رنّ هاتفه ليسأله صديقه إن غادر المكتب أم لا، وجد نفسه يخبره، أنّه لن يرافقهم.

صرخ به صديقُه محتجاً: «أحقاً تقصد ما تقول..؟ نحن ننتظرك منذ أكثر من ساعتين..»

فقال: «حسناً غيركم ينتظرنني منذ اثني عشر عاماً..».

طيلة الطريق وهو يلوم نفسه كيف لم يتبادر الى ذهنه أن يذهب الى ذلك المكان..؟ كيف فعلها وغادر البناية دون أن يتفقد البريد..؟ لماذا لم يسأل صديقه ما باله ولما يعامله بهذه الطريقة؟

يقترّب من مشارف المدينة ويلحظ التغييرات التي حصلت

في مدخل المدينة الشرقي.. ينظر بحزن الى علم اسرائيل
الذي يرفعه نصبً لفارس على قمة تل نابليون.
يمضي ونبضات قلبه تزداد كلما ازداد قرباً من بيتهم القديم.
ويزداد توتره في الدقائق الأخيرة تلك الرسالة التي تمنّاها
وانتظرها، لم يعلم أنّها هنا تنتظره منذ أكثر من عقد.
هناك في ذات المكان.. ما زال قادراً على سماع تلك الأصوات
البعيدة.. وصخب طفولتهم الجميلة.. يحاول أن يختصر
الوقت ليسير الى تلك الكوة في سور الحديقة ويخرجها بيد
مرتعشة، ليقراً:

« صديقي العزيز سامي.

انا بحبك كثير وبحب إنك تبقى هون معاي..

حاول إنك ترجع بسرعة..

صديقك نيسو..»

ينفجر بالبكاء.. ويستدير ليشق مرةً أخرى طريقه بين
الأعشاب المرتفعة.. متجهاً نحو مقبرة المدينة.. لعل صديقه
يسمعه ويعلم أنّه عاد.. عاد متأخراً.

نيسان 2013

وصايا الياسمين

حالما وصلتُ حينَنا القديم شعرتُ أي اشتياقٍ يجتاحني إليه.. وكان وجهها هي أول من بحثتُ عنه في المكان.. تمنيتُ أن تظهر صدفة، أو يصلها خبر ينبئها بقدومي.. لا أعلم لماذا بحثتُ عنها هي بالذات؟

ربما كان المطر هو السبب.. فحين يمرّ على الحجارة يمنحها لوناً أسمر يشبه لونها.. وتبدأ المزاريب تنشد قصصاً كتمتها السطوح أشهراً.. فأذكر قصصها الجميلة وأشتاقها.. وربما لأنّها تعيد إلي صورة ضائعة أبحث عنها كلما سار بي الحنين الى القرية..

البردُ قارصٌ سارعت برفع حقائبي ودخول منزلنا، ليفرح والداي واخوتي بعودتي المفاجئة، في إجازة قصيرة من دراستي خارج حدود الوطن.

ألح عليّ شوقي اليها والى الأزقة القديمة فقررت الخروج،
متسللاً.. قبل أن تنتبه أُمي اليّ وتحاول منعي خشية من
البرد.. مضيتُ أقصد السوق القديم. فإذا بجميع الأبواب
موصده لم يغامر أحد بالقدوم الى حانوته، مما تبقى من
حوانيت مستخدمة.. وتمنح شيئاً من الحياة لسوق يموت
يوماً فيوماً.

سرتُ في الأزقة القديمة وراحت تعاودني ذكرياتي في
حارتنا، في رواحنا وغدونا الى المدرسة وضجيجنا ما بعد
الظهر والذي كان من الصعب اختزاله في شتى أنواع لعبنا،
سواء كان لعب كرة القدم أم مطاردة بعضنا في شوارع
الحي مدججين ببنادقنا المزيفة..

تنساب قطرات مطر خفيفة عليّ.. أستنشقها بملء رئتي..
وتبقى الطرقات في هذه المساحة الزمنية مساحة شخصية
لي اتبادل وإياها عناقاً ونطفئ لهيب شوق صنعه الغياب..
وهنا بين خطوة وأخرى يمكنني أن استعيد صوري
الخاصة مع المكان.. وأرى كم غاب ورحل من رجال
ونساء كنت ألتقيهم تقريباً كل يوم.. غابت طاولة النرد
عن جلسات مكتبة العم عبدالله قرب عين الشيخ.. وغاب
الشاعر عوني³ بزيه الشعبي الجميل وبأغاني حداه عن
أزقتنا وعن أعراسنا.. وشيئاً فشيئاً راح يغيب صوت عبد

3 الشاعر عوني سبيت - (1930-2008) شاعر شعبي من قرية إقرث شمال فلسطين والتي هُجرت عام 1948. أقام في قرية الرامة.

الحليم عن المحلقة الصغيرة قرب القصر في البلدة القديمة، وأغلقت أبواب كثيرة خوفاً من الأشباح.. التي عرفها كثر وخافوا أن يدلوا باسمها فصاروا يتركون الأزقة ويباعدون. لأتوقف عن سيري متجمداً أمام كومة من الحجارة القديمة.. كانت لسنوات كثيرة غرفة مهجورة قبل أن تستحيل ركاماً.. حزنْتُ أنَّ أهل القرية ما زالوا يهدمون ما تبقى من المنازل القديمة بسبب الأزمة السكانية.. وشعرتُ بكبر الفقد الذي يصيب القرية.. ربما لأنَّ صورة نسجَتها هي لها بأحاديثها عن فترة كانت فيها القرية تنعم بالحب والازدهار والعيون العذبة، راحت تضعي كلما كبرت..

وجدتني بالقرب من بيتها، رأيتها للوهلة الأولى جالسة في نظرتها التأملية خلف ياسمينتها كعادتها.. فعدتُ ودققت النظر لأتحقق من عدم جلوسها في الخارج، إذ يصعب علي أن أرى المكان دون أن أرى أم خليل جالسة على مقعدها الخشبي القديم متلفعة بشالها الأبيض المطرز. تجلس في مواجهة مدخل حديقتها الصغيرة والذي تقوم عنده شجرة ياسمين، أهم ما عرفتة عنها أنَّها تكبرني بعدة عقود. أم خليل التي تتجه نظراتها دوماً إمَّا صوب البوابة الخشبية البنية العتيقة.. أو صوب الياسمينة، بدت تنتظر انتظاراً أدياً.. ولم تفصح لأحد يوماً عن حزنها أو عن انتظارها. أحبها سكان القرية بتحفظ شديد.. فقالوا أنَّها صارت

غريبة الأطوار مذ سافر ابنها خليل قبل ثلاثين عامًا،
ويبدو أنها لم تتقبل سفر ابنها وبقيت متعلقة بالعقود
السابقة..

أراها تشق الباب لتظهر ملامح وجهها وهي تنظر في
ساحتها الصغيرة تبحث عن شيء ما، فتسير اليه بالسرعة
التي تسمح لها بها سنونها الثمانون لتعود وتدخل
المنزل.. لم أحاول أن أسارع كالعادة لألقي عليها التحية،
أو لأزورها وأستمع لقصصها الجميلة عن القرية وناسها..
أحببتُ أن أتأمل المكان من بعيد قبل أن أمضي إليها..
فها هو يظهر الآن بهيّا هادئًا كما تصفه في حديثها عنه.

لقد أحببت ام خليل منذ الطفولة، وكنت مستعدًا لخوض
عراك مع أصدقائي إن حاول أحدهم ذكرها بسوء.. إذ كثيرًا
ما كانوا يلمحون إلى أنّ مسًا من الجنون أصاب عقلها،
وأنّها هي «جنية عين عبّدية» التي كانت تهددنا بها
أحيانًا وتقول لنا أنّها ستذهب إلى العين في الجبل شمال
شرقي القرية، وتطلب إليها أن تأتي إلينا لتضربنا وتمنعنا
من اللعب في الحي.

ولم أعترف لهم يومًا بالسر الذي قالت له لي عندما عظم
خوفي من الجنية إلى درجة أنّ الكوابيس صارت تزورني كل
ليلة وأنهض صارخًا في الليل.. يومها أخذني أبي لزيارتها
وطلب منها أن تخبرني عن القصة التي يُعتقد أنّها

الحقيقة حول (الرصد القائم على العين).. لتقول لي أنه ما من جنية ترقد هناك، ويبدو أنّ امرأة كانت تستحم في العين عند المساء عندما سمعت أصوات رجال قادمين.. فاخبتأت في المكان وراحت تزغرد وتغني حتى خاف الرجال وابتعدوا ظانين أنّ قصة الجنية حقيقة.. وهي ليست سوى خرافة. لكنّها طلبت مني أن أحفظ السرّ وأن لا أخبره لأصدقائي حتى تساعدنا تهديداتها على إسكاتهم. لكنني سمعت أبي يطلب منها قبل أن نخرج أن لا تعود لهذا الأسلوب الذي قد يسبب لنا عقداً نفسية.. وبذا كفت عن هذا منذ ذلك اليوم.. وبقوا في سرهم وفيما بينهم يلقبونها بالجنية.

ابتسمت وقررت أن أمضي إليها.. عندما اقتربت من البوابة التي قفلها عبارة عن غصن من الياسمين يجمع بين حلقتين مثبتتان الى مصراعي البوابة، وفوقها تقوم الياسمينة على قوس مشكلة المدخل الى الحديقة، راحت اجراسٌ صغيرة على الياسمينة موصولة بحبل بالبوابة ترن. دخلت نحو الباب وقبل أن أطرقه راعت انتباهي زهور عصا الراعي والنرجس التي نمت في الجرار الفخارية بقربه. شقت الباب وتهلل وجهها العجوز حينما رأتنى، لتأخذني الى صدرها.

بعد لحظات من مجالستها لاحظت أنّ معالم الفرح الأخير الذي رأيته على وجهها في زيارتي الأخيرة قبل ثلاثة أشهر

قد غابت.. كان البشر يملأ محياها إثر زيارة ابنها خليل من غربته ونجاته من حادث كاد يؤدي بحياته هناك.. أتابع ترهل مشيتها وحركاتها وهي تُعد القهوة وأقارن بينها وبين زيارتي السابقة.. وأتساءل ماذا حصل؟ وفيما أنا أتأمل الجدران الحجرية القديمة وأستنشق رائحة الباخور المشتعل سألتها: «كيف أحوال خليل يا خالة.. هل حادثك؟» وجدها تسألني فجأة «بتذكر جنية عين عبدية؟»

انتفضت قليلا في جلستي المسترخية على الأريكة، وتساءلت «يا الهي ما الذي ذكرها بها الآن..؟ هل قرأت أفكاري قبل دخولي المنزل...»، سألتها بعد أن عدلت جلستي: «نعم.. لماذا تسأليني عنها؟»

- بتتذكر لما كنت صغير كيف بطلت تخاف منها.. لما طردتها من عقلك..؟

أجبت إيجاباً وما زلتُ على حيرتي.. بقيت صامتة للحظات حتى أتت بصينية القهوة وفنجانين.. سارعتُ بإحضار طاولة صغيرة.. بعد أن ملأت الفنجانين قالت..: «بتعرف شو كان بدو خليل بزيارته الأخيرة..؟» بقيت عيناى متجهتين صوبها تنتظر إجابة.. وأنا عالم أنها ستفصح عن سبب حزنها وضيقها..

تنهدت وقالت: - «بدو يوخذني معه لبلاد الغربة لأنه

صار يخاف علي هون من الأشباح..
تصور..! لما وصل ما تأمل الياسمينه وفرح فيها زي
عادته، كان أهم اشي عنده إنه يغير قفل البوابة، والبوابة
كلها.. عشان خايف علي من الاشباح..
- «لا بأس يا خالتي فمن حقه أن يخاف عليك..»
وضعت فنجان قهوتها بعد أن أخذت منه رشفة وزادت
الجديّة في ملامحها حين قالت: «يا ابني.. ما رح يكون
تهديد أشباح اليوم أكثر من الأشباح التي إجتنا قبل
أكثر من ستة عقود.. وكان قفل الياسمين مدخلنا.. بوقتها
وصلت عيلتنا قرية البقيعة لما قرر جدي وأكم ختيار..
أنهم يرجعوا على البلد وما يكملوا طريقهم للبنان. عشان
ما يتركوا بيوتهم للأشباح.. وأغلب الي رجعوا لاقوا بيوتهم
محفوظة بفضل الي بقيوا. كانت القرية تعرف كيف تتحد
رغم كل الخلافات، من وقت ما عسكرت قوات الحدود في
الملعب شرق البلد.. للاحتلال.. لمعركة الزيت.. البلد صمدت،
ما فرقنا الدين ولا غيره.. كان الكل أقرب يا ابني لجذع
الزيتون.. وما نسوا الأيام الي جمعنا فيها الياسمين..»
زادت من تركيز نظراتها صوب عيني وقالت: «انا بعرف
انه أهل البلد مرّات بحسوني غريبة.. وبتحاشوا التعامل
معي.. بس أنا بستنا تيصحوا.. كلهم بحكوا عن الأشباح
وعن زعلهم من ورا الأبواب المسكرة..»

الأشباح ما تدخل وما بتعيش لحالها غير اذا إحنا منتركها
محل تفوت منه..»
رشفت رشفة قهوة وصدرت عنها تنهيدة عميقة لتقول:«
لما اجا خليل بدوا يبدل قفل الياسمين.. فهمت إنه ما في
ايش استتنا.. حسيت قديش صارت حزينة هالبلد وعم
بتضيع ..
مبين يا ابني ما بقي حدا يشم ريحة الياسمين...».

2013\5\29

رسائل بين البحر والصحراء

قررتُ أن أهجر غرفتي لبضعِ ساعاتٍ لعلَّ الطرقاتِ
تنقذني من كثافةِ وجودك..

أمضي وبالكادِ أرى طريقي، إثر دموعٍ تزدحمُ في عيني
كلما التقيتُ باسمك.. لا أعلمُ أبكي ذاتي أم أبكيك؟ مذ
تبعثُ حماقاتي وقررتُ أن أتسلل موصدة الباب خلفي
بهدوء..

لقد علمتُ أن هذه اللحظة لا بدَّ وتأتي.. لا بدَّ وأن تُطفح
العواصفُ والحرائقُ كيلى.. ولا بدَّ أن أرحل..

وجدتني أَلُمُّ حقائقى، وأقرر هذه المرة أن أهجر الوطن
لأهجركَ.. قلتُ لا بدَّ أن يذيب صخبُ المدن ظلك..

ها أنا أتخذُ مجلساً في مقهى بعيد عن كل الصخب الذي
حلمتُ به.. لأكتبك وأكتبني في رسائل، لعلني أصل قريباً

الى الرسالة الأخيرة.. وأنساك..
ونستطيع كلانا أن نفهم ما حصل.. فتستكين بعض الشيء
عواصفنا وتغيب عن ذاكرة الواقع لتصبح محض ذكرى..
قد تغفو وقد تستيقظ ذات ربيع، وقد لا تكون أكثر من
بسمّة تطوف حول قلبينا..

1

لقد بدت العاصفة يومها تهبّ من صوب البحر.. الملت
أشياءٍ وهربتُ الى الجبل.. ظننتني نجوت.. لكنّ سرعان ما
علمتُ أنني صرتُ في عمقها، حين راحت تنطلق هذه المرّة
من بين نوافذ قلبي.. فحرتُ الى أين أذهب..
أأعود الى البحر لتتماهى عاصفتي بين عواصفه فلا يراها
أحد..؟ أم أبقى متخفية خلف الصخور الى أن ترحل
العاصفة؟
انتظرت..
وما رحلت..

أقمتُ على صخرة جبلية بعيدة، ظننتها تقيني عواصف
البحر وحرائق صحراء قد تخفيك كتمانها على حين غرة..
لم ترحل العاصفة.. فإمّا تأتيني رياح رملية، أو زلازل
مائية.. وراح منسوب الماء والرمل يرتفع أكثر كل يوم..
لأنزلق الى أحد الطرفين مساءً.. وأعود صباحًا لأتسلق

صخرتي بحثًا عن خلاص..
تحتل الزرقَةُ مدى عيني.. تحمر وجنتا الشمس.. وكلما
تقدمتُ نحو البحرِ خطوة تغيرت زرقَةُ المدى.. أنظر
وأحسبُ أَنَّهُ سراب..
لأول مرةٍ تخالف وعدَ السراب وتأتي.. لتكون أنتِ.. أيُّ
جنون دفعك لتكون أنتِ..
أتأملُ تقدَمَكَ عبر فواصلَ صخرية ما بين الرملِ والماء..
تركُ ظلكَ يتمددُ بينهما كيفما يشاء، وتترك لي سعةَ
ذراعيكَ تتقدمان إلي..
أشعرُ برغبةٍ شديدة في الركضِ نحوكَ.. تخذلني قدماي..
تلاقيني ذراعاكَ، تلوبُ أصابعُكَ جدائي.. يغيبُ رأسي في
صدرِكَ، وقدماي في البحر..
أخرج من غرقِي.. لأطل من على كتفِكَ على آخر خيطٍ
ذهبي يغيب.. ويبقي السماء في حالةٍ تردد ما بين الاحمرار
والأرجواني..
يرتفعُ المدُّ يتسلق ساقِي، تمرُّ نسائمٌ غريبة تحشرُ نفسها
فيما بيننا، تحملُ بين كفيها عطرَكَ.. أظنني أحلمُ، أباعدُ
لأذرعَ وجهكَ، فأسقطُ غريقةً في عينيك.. وسرعان ما أشدُّكَ
إلي أكثر، وأهمسُ: «ساعدني أنقذني من الغرق..
فتقولُ وقد لاحت على وجهكَ بسمَةٌ: «فلنغرق معًا..
باعدتُ.. بدأتُ بالسير، لأصرخ على بُعدِ خطواتٍ: «تدركُ

أن الموت لن يتيح لنا فرصة عناقهِ معاً.. مثلما فعلت بنا
الحياة من قبله..».

تتبعني الى تلةٍ قريبة.. اعتليناها، لأجذك تستوقفني لتبحث
في مدى عيني.. وتسألني: «هل للحلم من أمل..؟». أتخبطُ
في عينيكَ التي يمتدُ خلفهما البحرُ.. خلفكَ البحرُ.. وخلفكَ
العاصفة..

قبلتُكَ وهمستُ: «إنّها عاصفةٌ.. وستمضي.. تبعثرنا قليلاً
لكننا سنرتبُ ذواتنا بعد أن ترحل..».

ظننتُ ذلك..

وأثبتت لي الحياة هذه المرة لا الموت.. أنني كنتُ على خطأ..

2

أترك البحرَ والتلةَ وأمضي.. لأختار صخرتي مرة أخرى..
أحاول أن أحيا كأنما شيئاً لم يكن.. وكأنّك لم تخالف
قدرة النص في المحافظة على رتابته.

يتجه بين الحين والآخر نظري نحو البحر.. لأتساءل أين
أنت ؟

تمضي الأيامُ بثقلٍ، وأتعثرُ بظلكَ كيفما سرْتُ.. حتى ضقتُ
ذرعاً بحالي، وسرْتُ صوبَ البحرِ مرةً أخرى.. لأبحثَ عن
شتاتِ ظلكَ هناك..

صار الشاطئُ مزدحمًا فجأةً.. تظهرُ فيه عيونٌ كثيرة..

عدا عينيك..

أتوقفُ فجأةً قربَ المقهى القريب أنظر تجاه مقعدين كانا
لنا ذاك اليوم.. المقعدان اللذان حققا أمنيّتي العسيرة في أن
تدعوني لتناول شيء ما.. في مقهى ما.. ذات يوم.

لم أفهم كيفَ تحقق ذاك اللقاء الغريب.. ما الذي دفعك
لدعوتي للسّير قريباً من تخطّطات البحر..؟ لتتركني أتقدمك
في السير.. ولم أكد اصدق حين استدرت لأرى أنّك ذاتك من
كان هناك..

الآن وسط هذا الغياب، أمام فراغٍ ذينك المقعدين منّا.. أدركُ
أنّك كنتَ هنا.. وأدركُ حقيقةَ رحيلك..

المقعدان في المقهى بقيا فارغين لأيامٍ عديدة.. على الأقل
أجدهما على هذه الحال كلما مررت في المكان، فأشعر
بالراحة نوعاً ما، لا أحدَ يجروُ أن يحتل مكانَ ظلينا..
وأفكر في كل مرة أن أدخل وأجلس على مقعدي لأخالِكَ
هناك.. ولأحميهما من تطفل الزائرين.. لكنني كنتُ دوماً
أقلّ جرأة من أن أفعل..

أعود الى صخرتي.. لهيبٌ صحراوي يأتي من الخلف..
كثافةٌ رملية تتمدد في المدى.. تحجبُ أشعة الشمس.. أشعرُ
بتشقق في صدري.. فأصرخُ: «أين أنت؟»..

3

بعد رحيل الضوء عن السماء بلحظات هذا المساء، رأيتُ
طيفَ نورٍ يتقدم الى صخرتي.. النسيم يتراقصُ من حولي
وأشعر بلهيبٍ في جوفي.. فأدركتُ أنها الصحراء..

أتقدمُ نحو النورِ.. تغوصُ قدماي في الرمال.. ما بين
خطوة وأخرى صرْتُ أشتهي الموت.. أشتهي قوة عظمى
تنتشلني من الهاوية.. في منتصفِ الطريقِ ما بين البحر
والصحراء تركتني وذهبت..

ذهبتَ وأنا تائهة.. أناديكَ ويشقيني النداء.. ولا من رد..
سوى رجع الصدى..

كنتُ قد أخبرْتُكَ منذ التقينا أنني أخشى اعتيادك، بقدرِ ما
أخشى وحدتي حين تلممُ ذاتك من بين ذراعي وتغيب..
سألتني يومها: «لماذا ترين عناوين الغياب..؟». صمتُ..
فقد أدركتُ أنَّكَ تجيد الحياة في الصحراء.. مثلما تجيد أن
تصحبني الى عمق البحر..

أمّا أنا فلا أعرف درباً للنجاة في كليهما، وقفتُ مكاني ما
بينهما.. وبعد أن حاولت كُفكُ مراراً أن تشدني وفشلت..
تركتني ورحلت..

تركتني والغربان والسواد يحومان حولي.. ها هي الأرض
تتشقق من حولي.. تتشقق جدران قلبي.. تسقط الجداول
والأمنيات من جسدي.. لأول مرةٍ تجيد حقاً قتلي..

4

يأتيني صوتك من بعيد: «ما بين البحر والصحراء لم أرحل...».

وتستطرد: «مرّ ضبابٌ كثيفٌ أثناء غفوتي وغيبك عن عيني.. أسيرُ في الدربِ أنظرُ بعيداً.. أبحثُ عن وجهك خلفَ الضبابِ..

والآن تمعنين في السؤال «أينك؟» وأنا أصدق في معالم الأرض ولا أعثر لك على جواب..

هل صرتُ عند حدود الصحراء دون أن أدري، أم أني حين أراك ستأخذني الريح الى وسط البحر..؟ أم تراني ما بينهما..؟ يختلط هذا المدى في عيني.. لم أعد أرى حدود المكان.. صرتُ في كل خطوة أصدق ملياً في الأرض وأتساءل أتربتها رملٌ أم ماء..؟

أحاول أن أسدّ مداخل قلبي.. فأشعر أنّ زوبعةً تكبر هناك.. أواربُ خلف صخرة خشية عليك.. من زوبعةٍ تسكنني.. رملية كانت أم طوفان...».

5

أحاول كثيراً أن أخبرك عن شذا الياسمين الذي يسافرُ في روحي كلما مرّت أنفاسك بها.. روحي التي تفقه معنى الحياة حين تراك.. لم تملك يوماً أن تطلق جناحيها

للريح.. في سفرها اليك..
وأنت تقفُ قبالي تفتحُ ذراعيك وأبوابَ صدرك، وتشدني
عميقًا.. وتقول: «ليتَكَ تبقيين هنا الى الأبد...»
تبعدني قليلا لتنظر في عيني: «لا أبتعد عنكِ.. حبًا في
البُعد.. ولا لأختصر شيئًا من جمال شقائي بك.. أنتِ هنا
في القلب مقامك.. شئتِ البقاء.. أم شئتِ الرحيل...»
أدفنُ وجهي في عبقِ عطرك.. أستمعُ الى صخبِ جداولِ روحك..
فينفجر من عيني ينبوعان.. تأخذُ جسدَكَ من ذراعي لتجعلَ
راحتيكِ مصبًا.. تُبعثرُ ماءَ عيني، تسألني «لماذا...؟»
ودون سماعِ جوابي تردني سريعًا إليك..
لم أعد ذاتي في تلك اللحظة.. صرْتُك أنت.. لم أقل: «ردني
الي». نظرتُ الى ما يحيط وجودنا، كنا هناك في تلك النقطة
المحايدة ما بين البحر والصحراء..
كم أحبُّك.. لو تدري.. كم تمنيتُ أن يتوقفَ الزمن عندَ
تلك اللحظة.. أن تورقَ ابتسامتكُ في دربي الى الأبد..
لكنَّه الزمنُ سار في دربه.. تركنا لمصيرنا ولم يتوقف..

6

يقترُبُ الظلامُ من زرقَةِ السماء.. يرتفعُ المدُّ.. من خلفك
أرى البحرَ من كلِّ الجهات.. أجدني أنتفضُ بين ذراعيك
صارخةً: «إنَّه السيلُ.. إنَّه السيلُ..» تمسكُ بذراعي

تستوقفني.. أنظرُ اليك.. متسائلة: « أين أنت..؟ »

تهزني حائراً وتتساءل :

« الى أين؟ أحياناً أشعرُ أنكِ أنتِ.. وأنتِ لستِ إياكِ، في الوقتِ ذاتِه.. كلما حاولتِ راحتي أن تهَبِكِ ما يهبُ المُحبُّ لسيدته المعشوقة من النساء.. أراكِ تباعدين.. تبينين جداراً ثم ترفضين الوداع. تبقين عليّ متخبطاً حائراً، أخذشتِ وعدَ الياسمين في عينيكِ؟ أترككِ وأرحل..؟

لكن.. سرعان ما أسمع نداءكِ من خلف جداركِ..

أطلّ عليكِ.. أنظرُكِ من شقوقِ في الحجارة المتبيسة.. وسرعان ما أجدني أبتسم لبسمتكِ.. أختنقُ بشوقي.. أحاولُ التخفي خشيةً عليكِ من حرائقي وجحيمي.. أخشى أن تمدي راحتيكِ إلي ذات مساء وتطيلي العتاب..

تقلبين الراحتين ولا تعثري على معالم أصابعكِ.. وتبكين..

لأعيش طيلة عمري تائهاً معذباً بسيل الدموع ووجع العتاب.. انا الذي كلما رأيْتُكِ تبحين في عيني وتباعدين.. اكتويتُ أكثر.. وما عثرتُ للجوى يوماً على ماء..

في كل مرة أقترَب أكثر.. يرتفع جدارٌ بيننا وأسقط مغشياً عليّ لأيام.. وأقرر في كل مرة أن أرحل..

لأجدني في كل مرة أفشل..

لأعود فجأة طفلاً صغيراً لا يفقه الحياة فكيف تحبه امرأة وحين يقدم لها زهوره يجدها تحزن..».

7

أحدقُ في حزنِ كَلِمَاتِكَ أَسْأَلُ كَيْفَ سَتَدْرِكُ حَقًّا مَعَالِمَ
روحِي..؟ كَيْفَ سَتَدْرِكُ أَنَّنِي لَمْ أَعْتَدِ اخْتِصَارَ رَوْعَةِ
وَجُودِكَ فِي آنِيَةِ الْأَشْيَاءِ..
أَتَدْرِكُ أَيَّ عَمْرٍِ قَضَيْتُ بِأَكْيَافَةٍ وَجَعَ غِيَابِكَ.. كَمْ مِنَ الْمَرَّاتِ
نَظَرْتُ حَوْلِي بِذَهْوِلٍ ظَنًّا مَنِي أَنَّكَ حَرَرْتَ ظِلَّكَ وَأَتَيْتَ..
وَكَمْ اعْتَدْتُ هَلَامِيَةَ وَجُودِكَ..
الآنَ حِينَ تَأْتِي.. أَوْغُلُ فِي عَيْنَيْكَ لِأُسْقِطَ عَنْ دَرْبِي سَرَابِيَةَ
وَجُودِكَ . أَتَشَبِّثُ بِرَاحَتِكَ لِأَتَحَقَّقَ أَنَّكَ أَنْتَ.. وَلَسْتَ ظِلُّكَ
قَدْ آتَانِي مَتَنَكَّرًا. لِأَقْتَرِبَ مِنْ نَبْضِ قَلْبِكَ وَأَدْرِكَ أَنَّكَ أَنْتَ
وَلَسْتَ غَيْرَكَ..
وَأَتْرِكَ رُوحِي تَحْلُقُ فِي السَّمَاءِ وَأَشْعُرُ أَنَّنَا فَوْقَ كُلِّ مَسْلَمَاتِ
الْحَيَاةِ..
مَا كُنْتُ يَوْمًا رَجُلًا عَادِيًّا.. لِأَكُونُ امْرَأَةً عَادِيَةً تَرْضَى بِمَا
أَرْضَيْتَ بِهِ مِنْ قَبْلِي النِّسَاءَ..
أَسْتَمِيحُكَ عَذْرًا..

8

يَصْبِحُ وَعْدُ السَّمَاءِ وَحُلْمُ الْمَسَاءِ شَقِيًّا عَلَيْكَ.. تَجِدُنِي
أَمَامَكَ وَتَفْتَشُ مَلِيًّا فِي الطَّرِيقَاتِ.. مِنْ أَيْنَ الدَّرْبُ إِلَيَّ..
تَسْتَيْقِظُ فِي رُوحِكَ بِهَجَةِ الرَّبِيعِ حِينًا، وَتَبْكِي جِرَاحَ قَدَمَيْكَ

وكفيكَ حيناً آخر..

لتراجعَ شيئاً فشيئاً تسألُ ذاتك وتسالني مرةً أخرى.. «الى أين؟».

9

ما بينَ البحرِ والصحراء لا أراك.. ظننتها لعبةً الغياب..
أصرخ بملء صوتي يأتيني أنينُك من بعيد..
أعلم متأخرة أنَّ عاصفة زارتك ذات مساء.. وأخفتك في
هوة..

على حافة القدرِ أنظر الى كل الاتجاهات.. أين أنت؟
كيف أنقذك؟ وانا على خشية من السقوط في كل خطوة..
وعلى علم أنَّ عزريل يتربص بين ذرات الرمل وبين قطرات
الماء..

حارَ قلبي لأصرخَ من على صخرتي..: «يا رب كيف
الخلاص..؟»

لتمطرَ سحبٌ عيناى.. فتنزلق الدموعُ عن حدود الصخر
الى البحر.. وشيئاً فشيئاً راح يعلو منسوبُ الماء..
يقترب الموج اليّ ويتوعد.. احتبستُ دمعى.. لكن أفلتت من
صدرى تنهيدة.. ومضت الى الرمل خلفي..
رفعت حبيبائه وتركتها في يدِ الريح.. لتذروها الأخيرة في
عيني..

جلستُ القرفصاءُ أغمضتُ عيني وصمتُ.. تركتُ العواصفَ
تطرق نوافذ قلبي وتخلعها.. وأنتظر..
أنتظر أن تنقذك قوةُ الهية.. أصلي.. أكتُم أنفاسي.. أنصت..
ليتَكَ تقول شيئاً..
لكن ما من صدى.. ما من صدى..
وارتفع المدُّ أكثر..

10

وقف بقربي راح ينفُضُ بياض ريشه الى أن استيقظت..
يرفع رأسه نحو كل الاتجاهات ويسألني «أين نحن؟»..
وفيما أحاول تذكر ما مرَّ عليّ في الليلة الماضية.. أزيل ما
ترسب من أملاح الدموع في محجري..
لتنفض روعي متسائلة: «تري كيف أصبحت؟»..
أحاول أن أعثر على دربٍ اليك.. ويلح في سؤاله عن طريق
السعادة..؟
أجبتُه على عجلٍ.. وأنا أنظر فراغ المدى.. «لم أدرك بعد
حلم النوارس»..
ليقول: «لا بأس في أن تفعلِي»..
أبتعدُ عنه قليلاً، لأبحث عن تقاسيم وجهك.. أما تزال
النيران تقيم في جبينك.. أيسكن وجع صدرك.. أينك؟
يتعقبني النورس سائلاً: «كيف أخرج من التيه..؟»

أنظر الى المدى المائي من حولي.. وأرى قوس قزح يظهر
من بعيد.. همستُ قائلة: «ابحث لك عن أي درب ستكون
في مأمن، لن يعود الطوفان»..
وحين شرّع جناحيه وابتلعه الأفق.. أدركتُ أنّه كان رسولك..
غاب قوس قزح.. لأجدي بعد أيام قليلة على خطأ..
حين لاحت بواذر الطوفان..

11

لستُ أدري كيف أخذنا الطوفان.. من أين جاء بك؟ وكيف
جمع تيهنا في دوامة واحدة..
تلوبُ فوق أرض البحر والصحراء وتمضي بعيداً..
تتركني أحرق في عينيك.. وأبحرُ في حدود بسمتك سعيدة..
لكن شيئاً فشيئاً يضيق الخناق..
أسألك أأكثرنا العبث في تربة البحر والصحراء حتى استفاق
الاعصار..؟ ماذا حصل؟ وكيف الهرب؟
فتحدثني عن قلب نهشت النيرانُ جدرانَه.. وتنظر الى
الأسفل نحو البحر تسألني التلاشي بين ذراته.. فيما يزداد
الصخب.. وتزداد قُرْباً.. أشعر بالاختناق.. أنظر في المدى
أبحث أين يمكن أن يقع حد الشاطئ..
فجأة تغيرت ملامحك.. لم أعد أراك.. أنظر ضبابية الأشياء
من حولي وأنفضها... أينك؟

أحرق في اختلاط هذا المدى..
لأصرخ بكل قوتي: «كفى..
تلقي بي الدوامة بعيداً..

12

حين استيقظت وجدت الأرض عادت الى حالها الطبيعي
الماء والرمل والتراب جميعها تعرف حدودها.. أي شيء لم
يتغير في هذا الوجود.. سواي..
صرت فجأة مجرد أشلاء تُلَمَّم وتُبْعَثَر في لحظة.. وحين لاح
وجهك ابتسمت وبكيت في آن..
أردت أن أسألك كيف أضعت قلبي..؟ كيف بعثرتني..
لكني آثرت صمتي..
وخشية على فقدك..
قررت الرحيل.

هذا ما كان بيننا وأدرك أنه أكبر من التحديق في مسام
الأشياء.. ومن جدلية تفاصيل الحياة.. خشيت كثيراً على
وهج عينيك في قلبي.. ماذا لو راح هذا النور يخبو..؟ ماذا
سيبقى لي؟

الآن وبعد هذي الرسائل أستطيع أن أفهم ما حصل..
باعدت لئلا تسقط صورتك البهية عن جدرانِي العالية..
فأفقد ملامح وجهك.

لتبقى أبداً صورة بهية..
ولأجل بريق بعثته في صدري كان الرحيل..
ومن يدري قد يكون لأجله يوماً.. الإياب..

آب 2012

الفهرس

10	هذه القصص
16	احتمالات قليلة.. مسافات أقصر.....
23	هواجس عند مدامع المدينة.....
29	هي أسمال ذاكرة.....
36	جداول الألحان والحروف.....
44	شجرة الزلزلة.....
47	وميضٌ عند الهاوية.....
50	وهم قصيدة
35	خيمة.....
55	عودة من الغياب.....
59	فوق الركام وخلف الدخان.....
63	رهبة البناية
71	أمل
37	شتاءٌ آخر دونك.....
77	سؤال.....
80	أحلام صغيرة.. دروبٌ ضيقة
48	أشياء لم يجمدها الصقيع بعد.. ..
96	مع الريح وخلف العاصفة
98	انسياب الذاكرة
106	وصايا الياسمين
114	رسائل بين البحر والصحراء